

**الوردة القاتلة**



إبراهيم شحبي

# الوردة القاتلة

رواية

الكتاب: الوردة القاتلة.. رواية

المؤلف: إبراهيم شحبي

## جداول

للنشر والترجمة والتوزيع

رأس بيروت - شارع كراكاس - بناية البركة - الطابق الأول

هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637

ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان

e-mail: d.jadawel@gmail.com

www.jadawel.net

## الطبعة الأولى

كانون الثاني / يناير 2018

ISBN 978-614-418-\*\*\*-\*

## جميع الحقوق محفوظة © جداول للنشر والترجمة والتوزيع

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

طبع في لبنان

Copyright © Jadawel S.A.R.L.

Caracas Str. - Al-Barakah Bldg.

P.O.Box: 5558-13 Shouran

Beirut - Lebanon

First Published 2018 Beirut

الإهداء

تُهدى الأضحى وأُهدي مهجتي ودمي

الحلاج



(الروح ذكر والروح أنثى، الروح ذكر والنفس أنثى، الروح والنفس  
أنثى وهما شيء واحد).

أقوال

\* \* \*

إشارة (أ)

(النقطة أصل كل خط، والخط كله نقطة مجتمعة، فلا غنى  
للخط عن النقطة ولا للنقطة عن الخط، وكل خط مستقيم أو منحرف  
فهو متحرك عن نقطة بعينها، وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين  
نقطتين).

الحلاج



## 1

أسندتُ ظهري إلى حائط الوقت، أتكىُّ على زمن قد عبرني، هل بقي لي بي حاجة؟! كأن للطريق ألف ألف خطوة ولي خطوة واحدة! ما كان لي أحجية ولا أجنحة، ولا كان الطريق يضيء، ظلّ الدرب عتمّةً، والدهر مسافة، والعالم سرّاً خفياً، توقفتُ كثيراً أمامي.. أمام روحك، كان يجب أن أسافر لي ولها حتى لا تموت المسافة بيننا، تلك الروح التي تركتُ لي السؤال على سطح زمن قديم، ارتدتُ معطفها وغادرتُ قبل أن يسرق الزمن بقايا المسافة التي كانت بيننا.

مولاي أبا سليمان: مضى العمر وأنا ما زلت بريق ماء دجلة الذي استقبل رماد جسدك، منذ كنت شفافة الروح التي خرجتُ منك إليّ، وما زلت أنت وهج الأعماق، أحمل سنابل قلبك وبحر اللؤلؤ والمرجان في مناجاتك وابتهالاتك، يشعّ في العمر إشراقاً حين أطاردني.. أطاردك في فضاء السماء، يتراقص النخل ويغني النهر وتصدح البلابل عندما أزور مقامك في بغداد بين حين وآخر كأنها جميعها تغني معي:

والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وحبك مقروناً بأنفاسي  
ولا خلوتُ إلى قوم أحدثهم إلا وأنت حديثي بين جلاسي  
ولا ذكرتك محزوناً ولا فرحاً إلا وأنت بقلبي بين وسواسي  
ولا هممتُ بشرب الماء من عطش إلا رأيتُ خيالاً منك في الكاس

مضى ما كان وكان من هيامك بربك يا مولاي وبقي لي هيامي بي..  
بك، فشددتُ إليك ترحالي ألف سنة ونيف أطوف البلدان، وأصعد  
مدارج السماء فأجد الباب موصلًا بيني وبينني وأنا غائبة حدّ الغواية في  
تضاريسك يا سيدي، عينك وبحر من الشوق والأمنيات، ونظرة الأفق  
البعيدة، محاصرة بحبك أينما يَمُمْتُ وجهي وجدتك حاضراً حدّ الوله  
فيك، تجود عليّ بنفحاتك، وما زلتُ أنتظرُ انصهاري في ذاتك.. ذاتي،  
وأخلصُ من عذابي.

أنا ورده محبك (أبو بكر الشبلي) التي أخرجتُ نارها بعض روحك  
التي وهبتني الحياة قبل أن تصعد بقيّة روحك بعد ضرب عنقك بالسيف  
إلى السماء فهَمَّتُ وراءها في الفضاء لألتحم بها التحام الجزء بالكل،  
فمضيتُ أسبح من دون أن أدركها، وحيل بيني وبين أن أندمج فيها  
فتركتني بعد أن قصرتُ حدود قدرتي على إدراكها لأبقى إلى آخر الزمان  
أتلطّي بالشوق إليها، وعلى الرغم من مرور هذا الزمن في بعدي عنك  
فروحي البعض تشناق روحك الكل، تطوي إليها الأزمان، وتعبّر إليك  
مسافات النور:

مُزجتُ روحك في روحي كما تُمزج الخمرة بالماء الزلال  
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنافي كل حال

- مولاي أبا سليمان (الحسين بن منصور): مع أنني جزء من  
روحك، ونفحة من جلالك، لكنني يا سيدي متشوّقة إلى استعادة  
تفاصيل حياتك التي ملأت الدنيا، ولي رغبة في الانتشاء بعالمك  
الواسع الذي عشته حين كنتك واحداً، ثم حين تركتني روحك أتعذب  
عبر العصور بين الناس، سمعتُ كلاماً كثيراً يا مولاي؛ بعضه ينقض  
بعضه، فالناس لم ينسوا ذكرك والخوض في حياتك فألفوا عنك عشرات

الكتب، وسردوا آلاف الحكايات، وبقيتُ أنا مشغولة بعالمك الذي شغلَ الناس كلَّ هذا الزمان، أبحث عن تفاصيل التفاصيل في حياتك منذ فارقت الدنيا مصلوباً في يوم الثلاثاء، الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة للهجرة النبوية، الموافق لسنة اثنتين وعشرين وتسعمائة لميلاد المسيح (عليه السلام)، وتفرَّق رماد جسدك في نهر دجلة بعد حرقك فأكلتُ من ذراته الأسماك والشجيرات النهرية، وشرب أهل العراق منه ما شربوا، وعبرَ ذكرك مسافة من الزمن حولت كل ذرة من ذرات هذا الرماد إلى مئذنةٍ ومنبرٍ، وكتاب يُتلى في كل منها على مسمع الدنيا ووجدانها وضميرها، ومنذ زمن يزيد على ألف ونيّف من السنين وأنا أزور محبيك، أحلُّ مع هذا، فإذا مات بحثُ عن محبٍ آخر، وكثيراً ما كنت أجد كاتباً أو أكثر عبر العصور شغلهم التأمل في حالك، وأحبّوا أن يسبروا أغوار حياتك، ويعيشوا تفاصيل سيرتك الآسرة، فليتك يا مولاي تُعيدني سيرتك الأولى فلستُ سوى جزء من نفحة روحك.

بقية روحك - وردة



## طاسين «السراج»

«طس» سراج من نور الغيب، بدا وعاد، وجاوز السراج وساد، قمر تجلّى من بين الأقمار، برجه في فلك الأسرار، سمّاه الحق «أمياً» لجمع همته، و«حرمياً» لعظم نعمته، و«مكياً» لتمكينه عند قربه، شرح صدره، ورفع قدره، وأوجب أمره فأظهر بدره، وأضاء سراجَه من معدن الكرامة.

## الحلاج



## 2

ولدتني أُمِّي سنة أربع وأربعين ومئتين للهجرة النبوية الموافقة لسنة ثمان وخمسين وثمانمائة لميلاد المسيح عليه السلام لوالدي منصور بن محمى الفارسي في قرية (تور) التي عُرِّبَتْ بعد الفتح الإسلامي إلى (طور)، وهي قرية تقع في الشمال الشرقي لمدينة البيضاء التي سميت نسبة إلى قصر أبيض يتوسطها، وكانت البيضاء مركزاً للتعريب والجدد في عهد الفتح الإسلامية، وجاء مولدي في عهد الخليفة العباسي (المتوكل على الله)، إلا أنني عشتُ طفولتي في مدينة (شوشتر) أرض الثمار والأزهار التي أخذنا أبي إليها، وهي مدينة فلاحية يمر بها نهر كارون الذي يسقي مزارعها وسكانها، غزاها (البراء بن مالك) سنة سبع عشرة للهجرة في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتحول اسمها إلى (تستر) وأصبحت بعد ذلك مدينة ذات طابع ديني مميز فوسمها أهلها من الفرس والعرب بدار المؤمنين.

كانت قرية «طور» وما جاورها من أشهر قرى فارس في صناعة النسيج الذي عمل فيه والدي حلاجاً للقطن يفصل البذور عن (التيلة) ليتحول القطن بعد ذلك إلى خيوط صالحة للنسج، ثم لم يلبث أن غادرها مصطحباً الأسرة إلى مدينة تستر لزيادة الدخل فعمل في نفس المهنة بضع سنوات قبل أن تنقلص المداخيل بسبب وفرة العاملين، ما

اضطربنا إلى مغادرة تستر باتجاه مدينة «واسط» في العراق بعد أن ضاقت الحال بوالدي وأنا في التاسعة من العمر، فاستأجر ثلاثة جمال حمل على اثنين منها ما لدينا من أثاث صالح، ووضع على الثالث هودجاً ليحمي أمي من حر الشمس، بينما ركبنا وراءه على الجمل الأول وأنا صغير الجسم، فشدّ أبي وسطي بوسطه بقطعة قماش كي لا أسقط عند النوم، ووضع فوق رأسي عمامة كثيفة أسدل فائضها على ظهري لكي لا تقضي عليّ الشمس وخرجنا مع قافلة كبيرة فيها من يريد واسط، وآخرون كانت وجهتهم البصرة، وقاد القافلة ونظّم أمورها رجل يدعى الأهوازي.

أمضينا في الطريق أسابيع عديدة لا نتوقف في الغالب إلا ساعات في أماكن وقرى صغيرة لنأكل ونطعم الجمال ونسقيها ثم نرحل، واضطربنا موت أحد أفراد القافلة بسبب مرض عارض إلى التوقف ليدفنه رجال القافلة بينما اكتفت النساء بالبكاء فوجدتها فرصة لأرتمي في حضن أمي وأنام.

كان أبي يُسمّي لي الأماكن التي عبرناها منذ خرجنا من تستر إلى جند سابور، وسماها مرحلة، ومن جند سابور إلى السوس مرحلة، ومن قرقوب إلى قرقوب مرحلة، ومن قرقوب إلى الطيب مرحلة وكانت كل مرحلة تأخذ منا أياماً، ثم اتصلنا بأعمال واسط إلى أن وصلنا بعد أيام عدة «وسط المدينة» قبل العصر، فأخذنا أبي إلى ناحية في السوق وأناخ الجمال الثلاثة وأنزل أمي من الهودج بينما قفزت أنا إلى الأرض، وأمرنا أن نظلّ في مكاننا وذهب لبيحث عن دار نسكنها، بعد وقت عاد لياخذنا إلى بيت لا يزيد عن غرفتين وفناء صغير تحيطه بعض أشجار النخيل متوسطة الطول حيث أنزل حمولة الجمال بمساعدة أمي، ثم أخذ تلك

الجمال إلى السوق ليعيد إرسالها إلى أصحابها في تستر مع الأهوازي الذي تكفل بذلك بينما قمت أنا وأمي بترتيب المنزل، ولم ينس أبي أن يجلب لنا طعامًا عند عودته فاشتري خبزًا وقليلًا من السمّن.

بعد أيام انخرط أبي في العمل عند تجّار السوق، تارة حمالًا وأخرى حلاجًا، أما أنا فقد أودعني إلى كتاب علمني فيه شيخي عبدالحق الواسطي القرآن والكتابة فحفظتُ القرآن مع بلوغي الثانية عشرة، وتنقلت في كتاتيب واسط أستزيد من العلم أربع سنوات إضافية حتى أتيت على كل كتاتيب تلك المدينة التي بناها (الحجاج بن يوسف الثقفي) في عهد بني أمية سنة ثمان وسبعين، واستمر في بنائها إلى سنة ست وثمانين للهجرة على نهر دجلة بين الكوفة والبصرة لتكون مقرًا لجنده، فتحولت مع الأيام إلى مركز لأكبر مدرسة إسلامية نهضت أركانها على أصول الدين، ففيها برز جموع الزاهدين من لاسبي التصوف، وملتحفى الرّفعة البيضاء والخرقاء، وغيرهم من رجال الدين والعلم من الحنابلة والشيعة والشافعية والمتصوفة ممن يطوون نهارهم صومًا وتذكيرًا، وينداح ليلهم تبتلاً وتسييحًا وشعارهم (لا تملك شيئًا ولا يملكك شيء)، وكانت جموع الدارسين من طلبة العلم تغد من كل مكان إلى الجامع الملاصق لحي الخضراء الذي تعلمتُ فيه، كما تزودتُ بالمعرفة في جلّ كتاتيب واسط التي عمل والدي في ميادينها الاقتصادية فترة من الزمن.

عادتُ أسرتي إلى تستر وقد بلغتُ السادسة عشرة فأودعني أبي إلى الشيخ (سهل بن عبد الله التستري) فراجعتُ عليه القرآن، وتعلمت العربية لمدة عامين، كان شيخي على مشارف الستين، ويقع على رأس الزهاد الصوامين فأخذتُ منه الغوص في معاني القرآن لأنه نهج

منهج الاستبطان حيث ردّ الأمور المحسوسة إلى المعنوية آخذًا منها الإشارات الروحية (فصفتُ روحه من الكدر، وامتلاّت من الفكر، فانقطع إلى الله عن البشر، واستوى عنده الذهب والحجر)، ودار فكره حول الميم، وعندها تشربّت منه الميمية التي ترمز إلى حب الرسول «محمد» ﷺ، فلما اتسعت دائرة معرفتي بالسفر والمجاهدة وزيادة التوحيد أضفتُ إليها العينية (ع) وترمز إلى حب الخليفة علي بن أبي طالب (ع)، ثم السينية التي تمثل حب سلمان الفارسي، وهو من أصفهان، واسمه قبل اسلامه «روزبه» تخلى عن دينه الفارسي (المرزبة) وأسلم، ثم تشبّع لعلي كرم الله وجهه عند خلافة أبي بكر (ع)، وانتضى سيفه حيث احتجّ علناً سنة إحدى عشرة للهجرة النبوية لأنه رأى أن علياً كرم الله وجهه أولى بها من غيره من الصحابة، وتكاثر أنصار التشييع لعلي (ع) من أبناء فارس بعد أن منع بيع الأسيرة (شهریان) بنت الملك الفارسي يزيدجرد في سوق الجوّاري بالمدينة، ثم زوّجها بعد اعتاقها من ابنه الحسين فأنجبت (علي زين العابدين) ابن سبط الرسول وسبط يزيدجرد.

\* \* \*

بعد عامين قضيتهما في تستر إلى جوار شيخي (سهل) أحطتُ فيهما بأركان التشييع شعرَ بالملل الذي دبّ في نفسي فأوصاني بالسفر إلى البصرة فاستأذنت أبي وأمي في السفر لطلب العلم فأذنا لي بعد أن كانت أُمي ترفض ذلك خوفاً عليّ، لكن أبي أقنعها أن طلب العلم أمرٌ محمود فرضيتُ وأذنتُ لي فقبلتُ رأسها ويديها وخرجت في اليوم التالي إلى السوق أبحث عن قافلة.

ركبت مع قافلة محمّلة بالبضائع على الجمال والحمير، وقضينا في الطريق إلى البصرة أسابيع عصيبة مع البرد والمطر والجوع لا نسمع في الغالب إلا نباح كلاب القافلة الذي يوازي عواء الذئب في البراري أو يزيد عليها، وربما شارك جملٌ برغاء أو حمارٌ بنهيق، كان حامي القافلة شديد البأس، لا يتهاون في أخذ أجرته من المسافرين فقد طاف عليهم فردًا فردًا بعد المرحلة الأولى فدفعتُ له أجرته (سبعة دراهم) مقدمًا، وكانت أمي قد زودتني ببعض الخبز، ولفافة صغيرة فيها تمر جاف، وعلقت بكتفي زمزية ماء، ولقت فوق رأسي لحافًا يقيني الشمس والمطر.

تعالّت صيحات التكبير عندما غادرنا تستر، وأخذ بعض المسافرين في ترديد الحداء، وكان بعض رجال القافلة لهم خدم يقومون على تلبية طلباتهم، أما أنا فقد أخذتني الرحلة إلى آفاق التأمل في الكون، وسبحتُ بخيالي في فضاء الأرض حيث تعلو بنا القافلة جبالًا وتهبط بنا أودية، وتنيخ بنا في مواضع للشرب أو الطعام أو الراحة حتى وصلنا البصرة على الضفة الغربية لشط العرب - وهو المعبر المائي الذي يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات - والبصرة اختطها الصحابي (عتبة بن غزوان) سنة أربع عشرة للهجرة بالقصب، ومن ثم مصّرها الصحابي (أبو موسى الأشعري) وبنى فيها دار الإمارة بالطين، وسميت بالبصرة نسبةً إلى الموضع الذي بنيت فيه حيث يتكون من حجارة رخوة بيضاء اللون على مرتفع يطل على ما حوله، ثم أصبحت مدينة كبيرة فيها أسواق واسعة ومناطق سكنية كثيرة، مشهورة بجوامعها ومكتباتها العامة ودور النسخ والحدائق الجميلة، وكانت ثاني مدينة في العراق بعد بغداد التي أصبحت عاصمة الدولة العباسية، بينما تميزت البصرة أنها أول

مدينة بنيت بعد الفتح الإسلامي، وفيها بعض قبور الصحابة الذين قتلوا في معركة الجمل، ثم مارت فيها ثورة الزنج التي انطلقت سنة مئتين وخمس وخمسين للهجرة كإحدى أكبر الثورات على الخلافة العباسية.

بحثتُ عن بيت صغير بمجرد وصولي لأستأجره كي أنام بعض الوقت ثم أنطلق منه للعمل والعلم فوجدت غرفة صغيرة يحيطها فناء فاستأجرتها بدينارين في الشهر، ثم ذهبت بعد يومين من الراحة للعمل حملاً في السوق وحلاًجاً للقطن كما فعل أبي في واسط لأكسب قوتي وأدفع إيجار بيتي، وبعد أن أنهى عملي أذهب إلى جامع البصرة لأتعلم على أيدي المشايخ فتعرفت على الشيخ (عمرو بن عثمان المكي) سنة مئتين واثنين وستين للهجرة، ونشأت علاقة طيبة بيني وبينه، ثم تعرفت على الشيخ (أبي يعقوب الأقطع البصري) بعد ذلك بعامين فأحبني كأحد أبنائه وانصرفتُ للعلم في كتابه ولازمته، وأخذ يبعثني إلى السوق لأجلب لوازم لبيته فوقعت عيني على ابنته (سراء) عند أول زيارة حين فتحت لي الباب فأسرني جمالها، وأصبحتُ متشوقاً لرؤيتها كل يوم فإذا لم يبعثني الشيخ تحججتُ بالوجع حتى أذهب لأراها بينما هو في درسه مع طلابه لا يغادر في الغالب إلا مع الغروب.

وفي ذات يوم بعثني فاستقبلتني عند الباب وسألتني:

- من أين أنت؟

- من تستر

- فارسي أم عربي؟

- فارسي.

- ما اسمك؟

- حسين.

- وأنا أم الحسين..

- يا لمحاسن الصدف.

أصبحتُ (أم الحسين) شغلي الشاغل، فقد تفتّح قلبي بحبها كتفتح زهور السوسن والرياحين، وغدوت أراها في نومي وصحوي، وبعد سبعة أشهر من الحب العاصف فاجأني شيخي أبو يعقوب بدعوتي للعشاء معه في داره ليلة خميس فأخذني شعور من الفرح والخوف لم أستطع تفسيره فأطرقت لكنه همز في كتفي ومشى فمشيت وراءه.

بعد وقت وجيز قمنا إلى طبق من لحم طير وخبز برّ وحساء بالخضراوات، ثم أكلنا من طبق الحلوى التي لم أذق مثلها.

بعد العشاء سألتني شيخي أين أسكن؟

- في بيت صغير على مقربة من السوق.

- لقد علمتُ بحبك لأم الحسين وحبها لك وأريد تزويجكما.

- أسقط في يدي، وحنيت رأسي خجلاً فاستدرك ليحطني على

الكلام: إلا إذا كنت لا ترغب في النكاح.

- رددت بحياء ظاهر: الزواج من ابنتك شرف كبير لي يا شيخي.

- على بركة الله، بعد غد تأتي بما يمكنك من مهر ولو كان درهماً

واحداً وبعد العشاء تأخذ زوجتك إلى بيتك.

- أمهلني يا شيخي أسبوعاً لأستأجر داراً أكبر وأجهّزها بما يناسب

الزواج.

- لك ذلك.

خرجت وبني لوثة من الفرح وخوف المسؤولية فما زلت في العشرين من عمري، أبدو شاباً طويل القامة وسيم الوجه بأنف مستقيم مدبب الطرف وعينين تعلوهما زرقة، وزغب عارضين يميل إلى اللون الأشهب، أشبهتُ ملامح وجه أمي الجميلة، وأخذت عن أبي الطول والصلابة وقوة التحمل، يدفعني حبي للزواج من أم الحسين دفعاً، فبحثت عن دار أكبر من داري فوجدت في (حي تميم) بيتاً مناسباً به ثلاث غرف جعلتُ إحداها لنومنا، والثانية للطعام، والثالثة لضيفي وكتبي، وحول الدار سور يصدّ عيون المارة عن الفضول، ثم ذهبت لشراء بعض البسط من السعف وبعض آنية الفخار للطبخ، واشترت لي ثوباً جديداً ونعلاً صنعها الإسكافي من جلد بعير مدبوغ على مقاس قدمي وزينها بصباغ أحمر، واشترت كذلك قماشاً لأم الحسين وبعض المسك.

في يوم الجمعة صليت مع شيخي وأخبرته بعد الصلاة بأنني جاهز للزواج، وسأذهب إليه في المساء لعقد النكاح فقال: على بركة الله.

بعد صلاة المغرب طرقت باب شيخي (الأقطع) فإذا شيخي (عمرو بن عثمان) أمامي ومعه بعض المريدين فعقد نكاحي الشيخ (عمرو) بعد أن وضعتُ في يدي شيخي الأقطع سبعة دنانير مهراً لأم الحسين.

أكلنا اللحم والخبز وشربنا المرق وتبادلنا الأحاديث في مواضيع متعددة، ثم صحبت زوجتي إلى البيت لتبدأ قصة حب لم تنته إلى أن فارقتُ الحياة فما أحببت من النساء ولا تزوجت غيرها.

بعد عام من زواجي دبّ خلاف بين حماي الأقطع وشيخي عمرو بن عثمان بسبب عدم قدرة أحدهما على استخلاصي لطريقته لأن نفسي المتمردة على القيود جعلت علاقتي بالشيعة والقرامطة والإسماعيلية ظاهرة من أجل البحث عن جديد المعرفة، وكنت عندما أتمني إلى فرقة أخفي ما علمته من الأخرى، وأظهر مع كل طائفة على مذهبهم لكي أستميل قلوبهم، سواء كانوا أهل سنة أو شيعة أو معتزلة، أو صوفية أو حتى فساقاً، من دون أن يفهموا نظرتي التي ترى جوهر الإنسان وليس ظاهر سلوكه، وأجد أن نفسي تميل إلى الثورة أكثر من ميولها إلى التصوف والوحدة، وإلى مناصرة الفقراء والمحرومين والمظلومين أكثر من غيرهم، وعندما فسد الود بين الشيخين، وبلغ حدّاً من القطيعة والشتائم تلقيت من حماي وشيخي الأقطع الكثير من اللوم والعتاب والشتيمة فتوجهت إلى الشيخ (أبي القاسم الجنيد بن محمد الخزاز القواريري) في الشنبرية ببغداد لأخذ رأيه في الأمر بعد أن أبلغت زوجتي بعزمي على السفر وهي حامل، ولا أعلم كم أحتاج من الوقت فعارضتُ سفري أول الأمر ثم أقنعتها بأهمية السفر من أجل علاقتي بأبيها على أن أعود في أقرب وقت، أمضيت أياماً عدة في الطريق إلى بغداد مع إحدى القوافل الصغيرة، وعندما وصلت المدينة قصدتُ الشنبرية ودخلتُ مسجد الشيخ الجنيد، بعد يومين أبلغته حكاية الشيخين فأوصاني بالصبر، مكثتُ معه في مسجده ما يقرب من شهر أستمع إلى مواعظه، وأتعرّف على طريقته، ثم عدت إلى البصرة فوجدت أم الحسين قد وضعت لي ابني الأول «سليمان».



## «شاهد»

عن ضمرة بن حنظلة السماك قال: دخل الحلاج واسط وكان له شغل، فكان أول حانوت استقبله لقطان فكلف الحلاج صاحبه السعي في إصلاح شغله وكان للرجل بيت مملوء قطنًا فقال له الحسين: اذهب في إصلاح شغلي فإني أعينك على عملك، فذهب الرجل فلما رجع رأى كل قطنه في دكانه محلوجًا، وكان أربعة وعشرين ألف رطل فبهت، وسمّى الحسين بالحلاج فعُرف منذ ذلك اليوم بهذا الاسم.



## 3

مولاي أبا سليمان: تحدّث بعض الرواة أن أمك رأّت قبل ولادتك بأيام أن نورًا خرج من بطنها وصعد في السماء فانطلق الناس وراءه يحاولون التشبث به ولذلك قررت أن تعلمك في الكتاب لتكون خادمًا للفقراء إن كنت ذكراً، ورأت بعد ولادتك أن تُسلمك للشيخ الجنيد في بغداد ليعلمك القرآن لما له من مكانة علمية وشهرة في الآفاق، وكانت عندما ولدتك سمتك الحسين، ورعتك حتى بلغت الخامسة فلم يهن عليها بعد ذلك فراقك، فطلبت من والدك أن يعلمك صنائع عديدة لتكتسب قوتك منها فلم تُقبل على شيء منها، فقلت لها بعد أن رأيت حرصها على تعليمك أعمال أهل الدنيا: يا أماه.. أنتِ نذرتيني خادمًا للفقراء قبل ولادتي حسب قولك فاوهبيني لأبي القاسم - الشيخ الجنيد - وأوفي بنذرك، فحملتك من واسط إلى بغداد ودخلت على الشيخ الجنيد فقالت: هذا ابني الحسين أسلمه إليك ليعلمك وتعلمه القرآن فقبلك، وكنت تخدم الزاوية وتتحوج الفقراء، وتدخل خلوة الشيخ تكنسها وتنفض عنها الغبار وتبسط السجادة لشيخك، وذات يوم دخلت الخلوة لتنظيفها فإذا بورقة تسقط من سجادة الشيخ فيها اسم الله الأعظم فأخذتها وبلعتها تبركاً، وطلبها الشيخ فلم يجدها فشق عليه الأمر لأنها مرسوم ولايته فأخذ يخوف طلبة العلم حتى يردوها عليه:

- من وجد لي ورقة ولم يردّها قُطِعَتْ يمينه.

فلم يتكلم أحد.

- من سمعني أطلبها ولم يردّها قُطِعَتْ شماله.

فلم يرد أحد.

- من سمعني أطلبها ولم يردّها قُطِعَتْ رجله، وُصِّل، وُرْجِم،

وأُحرق، وذُرِّي في الهواء.

فنفذت الدعوات كلها فيك في نهاية عمرك.

ثم إن الشيخ سألك: ما افتكارك؟

فأجبتّه:

أوقفتني ببابه

(نسمة من جنابه

بوصله واقترابه

بشرتني في الدجى

من هجره واحتجابه

واستراح الفؤاد

في الدجى من خطابه

وطاب لي ما سمعته

سكرتي من شرابه)

وعلى كل حالة

فعلم الشيخ أنك ابتلعت الورقة فأوصاك بالتكتم، وعندما أرسلك

لحاجته في السوق كنت تقول للبائعين عندما يسألونك عن حاجتك:

أريد الله، فطلبوا من الشيخ عدم إرسالك في حوائجه لأنك لا توضح

لهم ما تريد شراءه، فطلب منك الشيخ الجنيد أن تكتنم السر فسححت في

الفلوات، وصعدت الجبال ستة أشهر، ثم عدت لمجلس الشيخ فوجدته

يتحدث للناس بكلام لم يفهموه فسألوه عن معنى ما يقول؟ فقال: ابحثوا

عن من يبكي مما قلت، فوجدوك في الدهليز قائمًا تبكي فسألك: هل

فهمت ما قال الشيخ؟ قلت: نعم.

فأخذوك إليه، وعندما رآك كرّر عليك الوصية بالسر والكتمان، قلت: لا أقوى على الكتمان.

فسألك ما المحبة؟

فأجبتة: (حبه نزل بقلبي، فلم أر إلا ربي، فأخذ لبي مني، وسلبني عني، ثم نظرتُ منه إليه، فلم أنظر إلا هو، فعلمت أنه الحق)، ثم بكيت بعد ذلك.

فسألك الشيخ: كيف ترى نور المحبة؟ فأجبتة:

- (أرى نورًا هام بحبه قلبي، فلم أر إلا ربي، فأخذ عقلي مني، وقد سلبني عني، ثم نظرتُ منه إليه فلم أر الكون إلا هو).

ثم زدت في البكاء، وأخذت تشطح في الكلام حتى تبرأ منك، وطلب عدم رؤيتك.

ولأن هذه القصة لا تتفق مع ما رويت لنا يا مولاي من سيرتك، فأنت ولدت بالطور والجنيد في بغداد، ثم تعلمت في تستر والبصرة، ولم تزره إلا بعد أن جاوزت العشرين.

وكثر الروايات في سبب تسميتك الحلاج الذي تحول مع السنوات إلى اسم يميزك فقال بعض من عاصرك: إنهم سموك الحلاج لأنك كشفت الأسرار للناس، كقولك لأحدهم: أنفق ما في جيبك على الفقراء، وكان لديه بضعة دراهم فبُهِت كيف علمت! وكنت في الأهواز تخبر الناس عن بعض أحوالهم المخفية فيصيبهم الدهول فتبينُ سبب غضب أحدهم وسبب فرح آخر، وتخبر بعضهم بما يحدث لهم في قادم أيامهم، وتخبرُ الناس بما أكلوه، وما صنعوه في بيوتهم فأطلقوا عليك (حلاج الأسرار).

وقال آخرون: إنك كنت تشهر جبك لربك، ولم تستطع السكوت على ما لا يرضيك من أحوال الناس، وفي الناس من رأى الاسم نسبة إلى عمل والدك في حلج القطن، ولأنك أيضاً قد ساعدت رجلاً قطناً من واسط ذات يوم في حلج قطنه بعد أن ذهب لحاجة له، وعندما عاد وجد كل قطنه مخلوجاً، وكان 24 ألف رطل، إذ استعنت عليه بالقرآن والذكر فأطلق الرجل عليك لقب الحلاج، وكل هذه الأسباب مجتمعة جعلت لقبك (الحلاج) يتحول إلى اسم عُرفت به أكثر من غيره من الألقاب التي كان الناس قد لقبوك بها، فأهل فارس يراسلونك بأبي عبد الله الزاهد، وأهل الهند بالمغيث، وأهل تركستان بالمقيت، وأهل خراسان بالميميز، وأهل خوزستان بالشيخ الحلاج، وأهل البصرة بالمحير، وأهل بغداد بالمصطلم، وظلت حياتك حافلة بالمتغيرات والكنى والألقاب، وبقيت أنا منذ انفصلتُ عنك يا سيدي أسمع الروايات، وأقرأ الكلمات التي تقصّ سيرتك على أمل أن أعود إليك ويلتحق الفرع بالأصل.

بقية روحك - وردة

إشارة (ب)

(ما ظهرت النقطة الأصلية إلا لقيام الحجة بتصحيح عين الحقيقة،  
وما قامت الحجة بتصحيح عين الحقيقة إلا لثبوت الدليل على أمر  
الحقيقة).

الحلاج



## 4

عاشتُ بعد وصولي البصرة بعض ظروف ثورة الزنج على الرغم من انشغالي بالعمل والعلم، تلك الثورة التي أشعلها عمال مناجم الملح الطبيعي الذي عُرف بالنظرون سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة في عهد الخليفة المهدي بالله الذي قُتل بعد توليه الخلافة بأشهر عدة فتولى المعتمد على الله أمر المسلمين فحارب هذه الحركة وفتك بقوادها وجنودها، وكان عماد هذه الحركة في بادئ الأمر بعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانين، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة تتكون من الهنود والزنج الأفارقة، وأهل القرى، وعشائر عربية نائية على السلطة في عهد المتوكل العباسي الذي غلبت على دولته سيطرةُ العسكر الأتراك وقادتهم على إدارة الأمور في الدولة، واستأثروا بالعطاءات والإقطاعات، واستبدوا بسلطان الخلافة حتى صاروا يولون ويعزلون الخلفاء كما يحلو لهم، بل يقتلون بالسّم أو السيف كلَّ من لا يحقق مطامعهم ومطامعهم من الخلفاء والوزراء، وحيناً يكتفون بالسجن، وقد حاول بعض الخلفاء أن يعيدوا إلى منصب الخلافة سلطانه وهيئته، وأن يستندوا في معارضة القادة الأتراك ومواجهتهم إلى تأييد شعبي عن طريق مهادنة المعارضين وإظهار شيءٍ من العدل والإنصاف بين رعيّتهم، حاول ذلك الخليفة المنتصر بالله سنة مئتين

وسبع وأربعين للهجرة، والمهتدي بالله سنة مئتين وخمس وخمسين للهجرة، لكن الأتراك تخلصوا منهما بالعزل والقتل، فما حكم كل واحد منهما إلا عامًا واحدًا فقط..

قاد ثورة الزنج رجل فارسي الأصل من أهل الري يُدعى «بهبود» وسمى نفسه (علي بن محمد)، وادعى انتسابه إلى (عبد القيس) في بادئ الأمر، ثم إلى (زيد بن علي بن الحسين بن علي) ليكسب تأييد الناس، وهو شخصية محيرة بفعل تقلباته السريعة تبعًا للظروف التي كان يمر بها، فحياته كانت غير طبيعية فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة المعتصم بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه فسلك نهجًا جديدًا، وظهر كقائد ديني فادعى نسبًا علويًا محاولاً أن يستثمر ما للشيعنة من عطف وتأييد بين الناس، وقد أحلّه أتباعه من أنفسهم محل النبي حتى جُبي له الخراج، وفشل وكلاء الملاك في الحيلولة بين الرقيق المضطهد وعلي بن محمد فكان الأسياد يحبسون رقيقهم في بيوت، ويسدون عليهم الأبواب والنوافذ بالطين، ومع كل هذا كان العبيد يتقاطرون على المعسكر العلوي بشكل مستمر.

بعد أن تنكّرت لبهبوذ جماعة كثيرة العدد في البحرين غادرها إلى البادية ليستقطن الأعراب، وادعى فيها النسب الشيعي على أنه (يحيى بن عمر أبو الحسين) فالتفّ حوله بعض الأعراب حيث استغلهم بإعادة السيطرة على البحرين، إلا أنه هُزم ففر إلى البصرة.

وقف أثناء إقامته القصيرة في البصرة على أوضاعها الداخلية السياسية والاجتماعية إذ كان المجتمع البصري منقسمًا على نفسه،

فحاول أن يستغل هذه الخلافات لمصلحته إلا أنه فشل، وفي الوقت نفسه رأى في حياة العبيد الذين يعملون في المستنقعات المجاورة للبصرة فرصة لتحقيق طموحاته لكنه طرد منها فذهب إلى بغداد، وفي بغداد استتبطن نسباً علوياً جديداً فانسب إلى «أحمد بن عيسى بن زيد»، ثم حاول الوثوب إلى السلطة مستغلاً الأوضاع المضطربة في حاضرة الخلافة، ولكنه لم يتمكن من ذلك بفعل إحكام الأتراك قبضتهم على الوضع، فعاد إلى البصرة سنة خمس وخمسين ومئتين للهجرة ليتزعم حركة ثورية مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد الذين تلقوا أنواع الظلم من سادتهم أرباب الإقطاع في شط العرب، وعانوا من البؤس والجوع والعري والإعياء بسبب حرمانهم من الطعام إلا من سميد وحبوات تمر، بينما كانوا يحفرون الأرض المشبعة بالأملاح، ويزيلون السبخ لتصبح الأرض صالحة للزراعة، ويجمعون «النطرون» لبيعه سادتهم ويستحوذوا على خيرات الأرض دون أن يمنحهم أجرهم، لذلك وجد العبيد في ثورة (بهبود) أملاً في إنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما أنه ادعى العلم بالغيب، ثم ادعى النبوة، وظلت فكرة «المهدي المنتظر» ترافق (بهبود) في جميع مراحل حياته السياسية؛ فاستغلها بذلك، إذ ادعى المهدي لضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين بلغ بهم الشقاء والاضطهاد من العباسيين حداً بعيداً، فكانوا يأملون في ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرّج عن أيامهم كربتها، وركز بهبود كثيراً على عراقه أصله، وأكمل زعمه بأن كتب على مسكوكاته النقدية «المهدي علي بن محمد المنقذ».

وكان (بهبود) قد جهر في مرحلة من حياته بمذهب الخوارج الذي يلائم ميل أصحابه للشورى، فحارب من أجل العدالة الاجتماعية

والمساواة، وكتب شعاراته على الرايات باللونين الأخضر والأحمر مازجاً بين لون راية العلويين ولون راية الخوارج.

لقد تعارضت أفكار (بهبود) عن الخلافة مع مفهوم الشيعة لها الذي يؤكد على الوراثة، وتبنى رأي الخوارج القائم على الشورى، ما نفّر منه الأعراب البسطاء وعرب البصرة والأهواز وواسط والمناطق المحيطة بها، كما رفض (حمدان قرمط) زعيم القرامطة أن يرتبط معه بعوامل دينية، أما شدته وقسوته تجاه أعدائه فقد جعلته خارجياً متطرفاً، يُضاف إلى ذلك أنه عامل أسرى الحرب معاملة الرقيق، ووعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعييد، ما يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاك للأرض، وهذا التناقض في عقيدة حركته أفرغها من أي صبغة عقائدية، وجعلها حركة مسلحة ضد الخلافة، كما جعلت من قائدها رجلاً مغامراً طموحاً إلى السلطة، واستمرت الاضطرابات بسبب هذه الحركة إلى سنة سبعين ومئتين للهجرة بعد أن عهد الخليفة المعتمد العباسي بالقيادة الميدانية إلى أخيه الموفق بالله، فتحول قائد الجيش إلى خليفة حقيقي، وتحولت المدينة التي بناها تجاه عاصمة الثوار والتي سماها الموفقيه إلى العاصمة الحقيقية للدولة، فيأتي إلى بيت مالها كلُّ خراج البلاد لدعم المجهود الحربي في إخمد ثورة الزنج، وصدرت منها الأوامر إلى كل الولاة والعمال في سائر أرجاء الخلافة ليقدموا كل ما يستطيعونه لإسناد جيش العباسيين في قتاله، الأمر الذي أوغر صدر الخليفة المعتمد فحاول الفرار من سامراء إلى مصر ليدخل في حماية الطولونيين، فألقي القبض عليه بنواحي الموصل وأعيد إلى سامراء شبه سجين.

في سنة مئتين وثمانٍ وستين للهجرة باشرت الجيوش العباسية

بقيادة الموفق بالله بهجوم واسع على «المختاره» عاصمة الزنج، وهي مدينة محصنة غاية التحصين، وفرّق قوّاده على جهاتها، وجعل مع كل طائفة نقّابين لهدم السور، وأمر الرماة أن يحموا بالسهام من يهدم السور وينتقبه فوصل النّقابون إلى السور وثلموه من مواضع عديدة، ودخل أصحابُ الموفق بالله من جميع تلك الثغرات وتوغلوا داخل المدينة فخرج الكمناء من خلف الجيوش العباسية وحدثت واحدة من أعنف المعارك قتل فيها معظمُ الجيش العباسي الذي دخل مدينة المختاره، فيما لاذ بالفرار من استطاع الإفلات من سيوفِ الزنج عبر نهر دجلة.

في بداية سنة مئتين وتسع وستين للهجرة تقدمت الجيوش العباسية بقيادة الموفق بالله نفسه لهدم سور المختاره مرة أخرى، وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس، وبينما هم كذلك وصل سهم إلى الموفق فأصابه في صدره فاضطرب عسكر العباسيين وخافوا، وتسرب كثير من جيوشهم تاركين ساحة المعركة، فأشار عليه أصحابه بأن يعود إلى بغداد، ويستخلف من يقوم مقامه فأبى ذلك، ولكنه احتجب عن الناس.

في يوم الأحد العشرين من شعبان سنة مئتين وتسع وستين للهجرة بكر الموفق بالله بعد أن برأ من علّته إلى القتال، وأمر (أبا حمزه نصير) صاحب الزوارق لقصد قنطرة كان الزنج قد عملوها في نهر أبي الخصيب فدخلت زوارق العباسيين نهر أبي الخصيب في أول المد فحملها الماء وألصقتها بالقنطرة فاجتمع الزنج على جانبي النهر ورموا الزوارق بكل معداتهم رمياً كثيفاً فأهلكوا من فيها ومن بينهم صاحب زوارق الموفق بالله «أبو حمزه نصير».

كانت مصر قد استقلت عن الخلافة العباسية تحت حكم أحمد بن

طولون، وكان لها جيش قوي في الشام يقوده المملوك (لؤلؤ) غلام ابن طولون، كاتب لؤلؤ الموفق بالله لنصرته، واشترط عليه شروطاً لنفسه فأجابته الموفق إلى كل ما طلب فخان سيده بعد أن أغراه الموفق، وانضم إلى جيش الدولة العباسية المحتشد لقتال الثوار فوصل في الثالث من محرم من سنة سبعين ومئتين للهجرة.

انضم الجيش الطولوني العظيم إلى جيش العباسيين بقيادة الخليفة الموفق بالله الذي أكرم «لؤلؤ» وأنزله مكانة تليق به، وخلع عليه وعلى أصحابه، وأحسن إليهم، وأمر لهم بالأرزاق على قدر مراتبهم، ثم تقدم إلى «لؤلؤ» بالتأهب إلى قتال الزنج، وكان الموفق بالله قد عطل القتال لحين قدوم «لؤلؤ»، وليستريح الجيش الذي تملكه التعب والكلل فشرع في محاربتهم بفريق بعد فريق من أصحاب لؤلؤ ليمرنوا على قتالهم، وليقفوا على المسالك والطرق في ساحات القتال التي لم يعهدوها من قبل فرأى الموفق من شجاعة لؤلؤ وإقدامه وشجاعة أصحابه ما سره جداً.

غلب الزنج على نهر أبي الخصب وقطعت القناطر والجسور التي عليه فأحدثوا تضيقاً في النهر وجانبه وجعلوا في وسط النهر باباً ضيقاً ليحتد جريان الماء فيه فيعيق الزوارق من دخول الجزر، وتعذر خروجها منه في المد، فرأى الموفق أن تقدمهم لا يتم إلا بقلع هذا التضيق فشرع في محاربتهم.

ألح الموفق بالله على اقتلاع المضيق وكان يحارب المحامين عليه بأصحابه وبأصحاب لؤلؤ وغيرهم عازماً على اقتلعه فأوقع بالزنج وقبعة مؤلمة، وقتل المحامين على المضيق عن آخرهم، ولم يسلم

منهم إلا الشريد فأخذوا من أسلحتهم ما لم يستطيعوا حمله، وتقدمت سفن وزوارق الجيش العباسي، وفرق العساكر من جميع جهاته، وأمر الخليفة الجند بالجد في القتال، كما أمر الناس ألا يزحف أحد حتى يرى حركة العلم الأسود الذي نصبه على دار إقامته، وحتى يُنفخ في بوق بعيد الصوت.

في يوم الإثنين السابع والعشرين من محرم سنة سبعين وميتين للهجرة زحفت الجيوش العباسية والطولونية جميعها ومن كل الجهات نحو المختاره عاصمة الزنج والتقى الفريقان في معركة حامية سقط فيها آلاف القتلى من الجانبين، استبسل فيها الزنج غاية الاستبسال، وأخيرًا تمكنوا من صد الجيش العباسي وإرجاعه إلى موقعه.

أمر الموفق بالله بتحريك العلم الأسود مرة أخرى والنفخ في البوق فزحف الناس في البر والماء يتلو بعضهم بعضًا فلقبهم الزنج واشتد القتال، وسقط من الفريقين جمع كثير، وألح الجيش العباسي إلحاحًا شديدًا في التقدم فانهمز الزنج وتبعهم أصحاب الموفق يقتلون ويأسرون فقتل منهم ما لا يُحصى عددًا، وغرق منهم مثل ذلك، وحوى الموفق المدينة بأسرها فغمرها أصحابه، واستنقذوا من كان بقي من الأسرى، وظفروا بأسر بعض قيادات الثورة مثل (علي بن أبان المهلبى) مع أبنائه وأخويه (الخليل، ومحمد) وأولادهما، وعبر الموفق بالله بهم إلى المدينة الموفقية.

مضى الثائر العلوي قائد ثورة الزنج (علي بن محمد) في أصحابه ومعه ابنه انكلاي وعضيده (سليمان بن جامع) وقواد من الزنج وغيرهم إلى الخط الثاني الذي كان معدًا كمصد في حال تقدم الجيش العباسي

من جهتها بينما اشتغلت جيوش الخلافة بالنهب والإحراق، وانصرفوا إلى سفنهم بما قد جمعوا من غنائم وأسلاب، وكان معظم القتال في هذا اليوم للجيوش الطولونية بقيادة لؤلؤ.

في يوم السبت الثاني من صفر وبعد ثلاثة أيام من الاستراحة أمر الموفق بالله جيوشه بالمسير لقتال الزنج مرة أخرى، وطاف عليهم هو بنفسه يعرف كل قائد بمركزه، والمكان الذي يقصده فعبر بالناس النهر، وأمر برد السفن إلى الضفة الأخرى حتى لا يفكر الجند في الهزيمة، والتقى الجيشان مرة أخرى، وبعد قتال ضار انهزم الزنج وتفرقوا لا يلوي بعضهم على بعض، وتبعهم أصحاب الموفق بالله يقتلون ويأسرون من لحقوا منهم فأسر في هذه المعركة أبرز قواد ثورة الزنج (سليمان بن جامع، وإبراهيم بن جعفر الهمداني، ودرمويه الزنجي)، وانتهى الموفق بالله إلى آخر نهر أبي الخصيب، وكانت جيوشه قد أعملت سيوفها في رجال مدينة المختاره عاصمة الزنج لتقتل مقتلة عظيمة منهم حتى غطت الجثث وجه الأرض لترسم صورة مروعة لواحد من أعنف الصراعات التي شهدتها أرض العراق في ذلك الزمان، وفي مساء ذلك اليوم تقاطرت أعضاء جسد قائد ثورة الزنج إلى حيث يقيم الموفق بالله كل عضو بيد واحد من الجند ليتبعها رأسه أخيراً.

عاد الموفق بالله إلى بغداد بعد انتهت الحرب التي استمرت بين أنصار الثورة هذه وبين جيوش الخلافة العباسية أكثر من عشرين عاماً بلغ العنف فيها من الجانبين حدًا لم يسبق له مثيل، حتى قال بعض الحاسبين الذين أحصوا عدد القتلى في هذا الصراع إنهم بلغوا نصف مليون قتيل، وانتشر خبر احتفال الخليفة المعتمد في بغداد بالنصر حيث دقت الطبول وفُرشت الولاثم، ووَزَّع الخليفة الدراهم على الفقراء،

وختن من لم يختن من أبنائهم، وتبرع تجار الأقمشة بالملابس، وأصحاب حوانيت الحلوى بحلواهم، وحضر الولاة من أنحاء دولة الخلافة إلى بغداد، كما حضر الشعراء والخطباء وقادة الجيوش والقضاة لتهنئة الخليفة.

هكذا كنت شاهداً على بعض أحداث ثورة عارمة انطوت صفحاتها الدموية كواحدة من أكثر صفحات التاريخ التي ألحقت ضرراً بالناس، وكان موقفني عدم المشاركة في إراقة الدماء، ولم تكن ثورة الزنج هذه وحدها التي حاربت الخلافة العباسية فقد سبقتها ثورات للعلويين وأتباعهم في الكوفة، وطبرستان، وجرجان، وقزوين، وبعضها رافق ثورة الزنج كثورة البحرين إلا أنها لم تصمد كثيراً، وبنهاية ثورة الزنج جاء الانتقام شديداً من الخليفة المعتمد على الناس فأعمل آلة الضرائب القاسية، وساءت الحال جداً في البصرة، وشعرتُ بعد أشهر بأن المقام بها بات مستحيلاً ففكرت في الخروج إلى مكة المكرمة للعمرة والحج.



«شاهد»

عن أحمد بن كوكب بن عمر الواسطي قال: صحبت الحلاج سبع سنين فما رأيته ذاق من الأدم سوى الملح والخل، ولم يكن عليه غير مرقة واحدة، وكان على رأسه برنس، وكلما فُتح عليه بإزار قبله وآثر به غيره، ولم ينم قط إلا سويعة من نهار.



## 5

قال بعض شيوخه: (العلم شجرة أصلها في مكة وثمارها بفارس) فعزمت على الخروج إلى مكة معتمراً وحاجاً بعد أن ساءت الحال في البصرة في أواخر سنة سبعين ومئتين للهجرة، وتركت زوجتي وابني في رعاية أهلها، وكان قد حدثني بعض طلابي في البصرة أن الطريق إلى مكة آمن وميسر، إذ شهد عناية من ولاة البصرة الأمويين إبان حكمهم، وخاصة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي سلك هذا الطريق إلى مكة، وفحص المياه في المحطات التي مرّ عليها على طول الطريق ليعرف مدى جودتها، كذلك سلكه من بعده عدد من خلفاء بني العباس في رحلتهم إلى الحج كأبي جعفر المنصور، وهارون الرشيد، وهو اليوم آمن بعد أن قضى الخليفة على ثورة الزنج.

عندما أخبرت زوجتي أم الحسين بعزمي على السفر من دون أن تكون بصحبتني بكت ورمت برأسها على صدري تتوسلني البقاء خوفاً عليّ من غوائل الطريق فضممتها ورحتُ أقبل عنقها ونحرها وكل جزء منها فقد أحسستُ بحب جارف يجتاح مشاعرها لم تبج به من قبل بهذه الحرارة، أمضيتُ أياماً في محاولة إقناعها بضرورة خروجي للحج وطلب العلم فلم يعد في البصرة ما يستحق البقاء من أجله إلا هي وابني، مؤكداً لها أن سفري لن يطول، وسأعود لها وأخذها إلى مدينة أكثر أمنًا

وسلامًا، وأوصيتها بنفسها فهي حامل، وأن تبقى في داري تحت رعاية والدها فإذا شعرت بما يخيفها فلها أن تذهب إلى بيت أسرتها حتى أعود، أعطيتها بعض الدراهم، وأخبرتها أن تأخذ ما تحتاجه من بعض تجار البصرة الذين تربطني بهم صداقة ريثما أعود فوافقت على مضم.

مضيتُ أبحث عن قافلة تقصد مكة فوجدتُ في السوق بعض التجار الذين حملوا بضائعهم على سبعة من الجمال وقبلوا أن أكون برفقتهم على أن أدفع الكراء لجمال ثامن ففعلت، انطلقنا إلى المنجاشية، ثم الحفير، ثم الرحيل، ثم الشجّي، ثم ضرية، ثم الرقعي عبر صحراء واسعة، ورمال تسوخ فيها أقدام الجمال، وبعضها يفقد قدرته على المشي فتركه ونكترتي بديلاً عنه من القرى التي نمر بها، وكنا نتوقف في بعض تلك القرى حسب مشقة مراحل السير فنبقى يوماً إلى يومين للراحة غير ما يتخلل الطريق من وقفات الطعام والصلاة وحاجتنا للماء وإراحة الجمال حيث تحط القافلة رحالها وتُوقَد في الليل شموع الحراسة التي يدور بها حراس القافلة منعاً لهجوم اللصوص، وحيناً تُوقَد نار الطبخ أو الشواء للصيد الذي يعرض لنا من أرانب وغزلان فنقتنصها، ونقيم ليلة سمر وسط تجمع المسافرين، وكانت تنضم لنا قوافل عند كل محطة حتى تعاطمت القافلة فزادت على ثلاثين جملاً، ومضينا نحث السير حتى دخلنا قرى جديدة والدفينة ومران إلى أن وصلنا أم خرمان - وفيها بركة (الخرابة) وهي دائرية الشكل، لها مصفاة مستطيلة تصل إليها المياه بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق - فنزلنا عندها فأكلنا وشربنا وأسقينا الجمال وأرحناها بعد رحلة شاقة في الصحراء لم أشهد في حياتي أربع منها حيث تبدو الرمال كالأمواج والصحراء بلا نهاية، وبقدر ما فيها من خوف ومشقة وتيه فقد وجدت

فيها قرباً من الله وأنا أفكر في آياته، وأقرأ القرآن، بعد يوم ونصف يوم ركبنا إلى أوطاس حيث التقينا قوافل أهل الكوفة فأخذنا عند بركة البريكة، وبعد راحة يوم ركبنا حتى أشرفنا على تهامة وأولها قرية ذات عرق وهي ميقات أهل العراق فلبست إحرامي، وليت لخالقي بالعمرة:

(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك، لا شريك لك لبيك).

اتجهتُ مع القافلة إلى شمال شرق مكة المكرمة، وبعد استراحة نهار في موقع يُقال له «البستان» كسرنا فيه شدة الحر، والبستان محطة للقوافل يلتقي فيها المسافرون الخارجون من مكة بالقادمين إليها فيساعد بعضهم بعضاً، ويرشد بعضهم بعضاً، ثم مضينا إلى مكة عبر وادٍ تحيطه الجبال من أغلب الجهات، وتفصل بين الجبال شعاب تتصل بالوادي، استمر سيرنا حتى أشرفنا على البيت الحرام وما يحيطه من بيوت من الحجر تتفاوت في الارتفاع حيث يزيد عدد الطوابق كلما اقتربنا من الحرم، وتتوسط تلك البيوت رواشن فيها نوافذ صغيرة، وحول الحرم أسواق في الأدوار الأرضية مليئة بأنواع البضائع والمأكولات يقصدها الزوار والحجاج، أما الطوابق العليا فمخصصة لسكن القادمين إلى مكة من أصقاع الأرض، دخلت إلى الكعبة فطفئتُ بها سبعاً، وقبلت الحجر الأسود وفي داخلي دموع غزيرة سححتها عيني على ثرى البيت الطاهر حين استرجعت ذكرى جهاد خاتم الأنبياء والرسل، ثم وقفت أمام الكعبة وتأملت حجارته وبابها الخشبي وصلت عند مقام إبراهيم ركعتي الطواف ودعوت قائلاً:

(اللهم أنت الواحد الذي لا يتم به عدد ناقص، الأحد الذي لا

تدركه فطنة غائص، أنت في السماء إله وفي الأرض إله، أسألك بنور وجهك الذي أضاءت به قلوب العارفين، وأظلمت منه أرواح المتمردين، وأسألك بقدسك الذي تخصصت به عن غيرك، وتفردت به عن سواك أن لا تسرحني في ميادين الحيرة، وتنجيني من غمرات التفكير، وتوحشني عن العالم، وأن تونسني بمناجاتك يا أرحم الراحمين).

ثم قصدت المسعى للسعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط وحلقت رأسي بعد ذلك، ثم عدت إلى صحن الطواف، وأخذت مكاني بين المقام والحجر الأسود على بعد أمتار من الكعبة، ونويت الصيام حتى الحج، بعد أيام من مقدمي جاء السدنة بقباطي أبيض وكسوا به الكعبة بعد أن نزعوا الكساء الذي عليها.

بقيت بجوار الكعبة منذ وصلت من البصرة حتى يوم السابع من ذي الحجة في فناء المسجد لا أبرح إلا لقضاء حاجة، أو طواف، أو صلاة فتعرض جسدي لأشعة الشمس المحرقة، وأحياناً لزخات المطر القوي، واقتصر طعامي على لقيمات من الخبز ورشقات من ماء زمزم عند الإفطار أو السحور كان يأتي بهما رجل لم أعرفه فيحضر كوز الماء ومعه رغيف مكّي مدور قبل الغروب، فإذا جاء الصباح ووجد الرغيف والماء لم ينقصه الكثير حوقل وحمل ما بقي وذهب، وعندما ينزل المطر على جسدي غزيراً أظل في مكاني في ممارسة لرياضة الصبر، والناس يصيحون بي لمغادرة المكان فلا أجيبهم، وفي تلك الأشهر استغرقت في التفكير في وحدة الأمة الإسلامية التي لا تتم بواسطة الحروب الدنيوية، وإنما عن طريق الالتفاف إلى حب الله.

قصدني وأنا في عبادتي أمام الكعبة شاب وسألني من أين أنت؟

التفتُ إليه وأجبتُه: لو كانت رؤيتك بالله لرأيت كل شيء في مكانه فإن الله تعالى يرى كل شيء فحجل الفتى وذهب، وقد مرّ بي وأنا على حالي أصناف من البشر منهم من يتألمني، ومنهم من يسألني، ومنهم من يبكي لحالي فقد ضعف جسمي، وتغير لوني، وأصابني شيء من العجز، وبينما أنا أتهيأ للصلاة الليل ذات مساء جاءني رجل فقال: أريد أن أطلب الله، فأين أطلبه؟.

- أجبتُه غاضباً: (تعالى الحق عن الأين والمكان، وتفرّد عن الوقت والزمان، وتنزّه عن القلب والجنان، واحتجب عن الكشف والبيان، وتقُدّس عن إدراك العيون، وعمّا تحيط به أوهام الظنون، تفرّد عن الخلق بالقدم، فمن كان هذا وصفه كيف يُضل الطريق إليه؟!)، ثم دخلت في نوبة بكاء فلا أعلم أين ذهب الرجل!.

وبعدَ حينٍ جاءت امرأة قبيل الغروب فأخذت تقترب مني كأنها تريد أن تحدثني حديثاً لا يسمعه أحد فقالت: كيف الوصول؟  
قلت: انبذي الدنيا وراء ظهرك، فولت باكية.

وكان البيت يخلو من الزائرين أوقاتاً تطول وتقصّر، ويحل الظلام فأستغرق في التفكير ولا أتنبه إلا على صوت الأذان، أو على جلبة زوار، أو أصوات بعض الطلبة الذين يقرأون القرآن في جنباته، وبينما أنا أتصعب عرقاً من حرارة الشمس ولفح سموم مكة أراد أحدهم أن يخفف عني العناء بغطاء نصبه على عصا قريباً مني فأشرت له بإبعاده ففعل.

وسمعت واعظاً يصف عظمة القرآن لطلابه في ظل زاوية يقتعدونها بعد العصر فهتفت به، فلما دنا قلت له: (في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الأحرف في لام

ألف، وعلم لام ألف في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في الهو، وعلم الهو في (ليس كمثله شيء، ولا يعلمه إلا هو) فتولّى هاربًا، ولم أره بعد تلك المرة.



بقيت ما يقرب من عام لم أبرح مكاني، كلما أقيمت الصلاة قمت إلى مقام إمام من أئمة المذاهب الأربعة حيث للشافعية والمالكية والأحناف والحنابلة مقامات يجلس عند كل مقام منها علماء المذهب للدرس والفتوى ويقيمون الصلاة على فترات متعاقبة، وكلما حلّ يوم الجمعة صعد خطيب مكلف من والي مكة فيعظ الناس بخطبتين قصيرتين ويدعوا للخليفة وللمسلمين، وعندما جاء رمضان استبدل السدنة القباطي بكسوة أخرى من الديباج الأحمر، وأشعل خدام البيت السرج ليلاً في نواحي المسجد، وكثر العباد والمعتكفون، وأقيمت صلوات التهجد، وبرغم ضعف جسدي فقد اشتدت عزيمتي في التأمل الروحاني، وتماهت نفسي مع زاد الرسالة وجوهر كينونتها، وعظمة بيانها، وكلما داهمني الشوق لزوجتي أم الحسين وابني سليمان تذكرت أن محبة الله فوق كل محبة لمال أو ولد أو حبيبة فأبتلع غصتي، وفي صباح الثامن من ذي الحجة خرجت من عزلتي فتلففني خلق كثير يسألون عن قطاف الثمرة التي استوت على شجرة التأمل والخشوع فأجبتهم:

- (لو أُلقي مما في قلبي ذرة على الجبال لذابت).

خرجتُ إلى «منى» في اليوم الثامن يحف بي الكثير من الأتباع

الذين لا أعلم كيف تجمعوا، وأخذوا يراقبون حركاتي وسكناتي، ويتأسسون بي وأنا أردد:

لبيك لبيك يا سري ونجواي لبيك لبيك يا قصدي ومعنائي  
أدعوك، بل أنت تدعوني إليك فهل ناديت إياك أم ناديت أيائي  
ثم أشرقت شمس التاسع من ذي الحجة فصعدت إلى عرفات  
محفوظاً بخلق كثير، وكنت عندما ألبي أصبح كينونة تحركها إرادة الله،  
أمضيت نهاري بين قراءة القرآن والصلاة والدعاء، ودخلت في المناجاة  
بعد العصر حتى أزف الرحيل إلى مزدلفة بعد الغروب:

(يا من أمر بشهادة وحدانيته، ونهى عن وصف كنه هويته، وحرّم  
على القلوب الخوض في كفيته، وأفحم الخواطر عن إدراك لاهوتيته،  
فليس منك يبدو للخلق إلا الخبر، فسبحانك من عزيز يتجلى لأحد من  
غير علة، ويستتر عن أحد بغير سبب).

ودخلتُ بعد ذلك في نوبة بكاء ومناجاة فلم أستفق إلا على مريدين  
يكتبون ما قلته من نثر وشعر.

أرهقني السير إلى المشعر الحرام في مزدلفة، لكنني تقويت بالدعاء،  
وحين وصلتُ صليت المغرب والعشاء جمعاً وقصرًا، ثم خلدتُ إلى  
التأمل حتى الصباح لأنزل إلى «منى» فرميتُ جمرَةَ العقبة، وتابعت  
طريقي إلى البيت لأطوف طواف الإفاضة، وعند المساء عدت لمنى  
بعد أن حلقتُ رأسي وتحللتُ من إحرامي ومكثتُ بها ثلاثة أيام أرمي  
الجمرات وأستكمل النسك دون أن يترك الناس لي فرصة أخلو بها مع  
ربي.

وفي منى جرى بيني وبين أبي يعقوب النهر جوري كلام، فقال:

- (إن وردَ عليك بعض إشارة ورمز فلولا أن تكون الواردات متصلة والأحوال مشتبهة مشتركة في المنزلة لما تقابلت الواردات، ولا تساوت الحالات، ولا عُلمت الخافيات).

- اذهب فعندي من الأنباء ما فيه مزدجر، وعن غدٍ يأتيك الخبر.

- يا شيخ قد أعلمني المُعلِّم بعدَ أن أخبرني المُخبر.

- لا أعلمك اطلاعاً إلا إذا ثبت لك عن إخبارٍ كان أوله سماعاً.

- يا شيخ أنتج الإخبارُ شيئاً على سبيل الفراسة فلم أثق به حتى اطلعتُ مع الوارد على الأمر اطلاعاً، وعقدتُ أخباره على علمي فتقرب العلمان، وتلاقى الخاطران، وتساوى الفهمان.

- لكنني أنكر أن يكون الاطلاع من غير إخبار أقوى، والاستضاءة من غير نظر أضواؤ..

بعد هذا الحديث مضى كل واحد منا وهو يتكلم بكلام مع نفسه.



في ثالث أيام التشريق «بمنى» نقل لنا بعض المريدين ما وقعوا فيه في حارة (النقا) من خديعة واختلاس قبل يوم الترويه حيث أخذتهم فتاة جميلة إلى دار كبيرة لها مدخل واسع وبها غرف كثيرة وقد زعمت أن فيها من الحسان من كل جنس فأغرقت الشباب إلى الجماع، ووصفت لهم جمال الفارسيات والتركيات، ولطافة الحبشيات، وعذوبة الآسيويات فدخلوا الدار ليجدوا شاباً لهم سواعد مفتولة يأخذون كل قادم إلى غرفة ثم يجردونه من كل ما معه ويقذفون به عارياً مجرداً من كل شيء في زقاق ضيق تحيطه أسوار طويلة يفضي إلى ساحة للبضائع

ليجدوا بعض باعة القماش والسراويل هناك فيعرضون عليهم ما يستر عوراتهم مقابل أشغال يقومون بها كحمل الحجارة لبناء البيوت، أو جلب التبن من أحواش البهائم ومزجه بالتراب لصناعة اللين، وتعددت المرويات عن سلب بعض الحجاج لبعضهم، وعدم مراعاتهم لعظمة الشعيرة التي أتوا من أجلها.

بعد الحج عدت مع قوافل الحجيج إلى البصرة يرافقني عشرات المريرين من أهل العراق وفارس فوجدت زوجتي تنتظر قدومي في داري وقد أنجبت ابني الثاني أحمد، فلما قدمت عليها أخذت تبكي وتعاتبني معاتبة المحب فقد غبت عنها وهي في أمس الحاجة لي فضممتها إلى صدري فأغرقتة بدموع الشوق، وتشببت بي أياماً تمنعني من الخروج من البيت، وتعدّ لي أنواعاً من الأطعمة بعد أن أحزنها منظر جسمي الهزيل، وظللت أوكد لها أنني في أشد الشوق لها، وكنْتُ أحضرت لها بعض الأقمشة والعطور هدية لها ولأهلها.

حرصتُ على تعويض أم الحسين وضممت إلي ابني وتأملتها فوجدت سليمان أقرب في شكله إلي، وأحمد أقرب إلى أمه.



إشارة (ج)

ما وَّحَدَّ اللهُ غير الله، وما عرف حقيقة التوحيد غير رسول الله ﷺ.

الحلاج



## 6

بعد ثلاث سنوات مرت على عودتي من مكة المكرمة غادرتُ البصرة إلى تستر أواخر سنة أربع وسبعين ومئتين للهجرة حين بلغني خبر وفاة والدي هناك فاصطحبت أسرتي وقد ولدت أم الحسين ابنتنا (فوز) قبل أشهر فانضمت إلى سليمان وأحمد، وكان سفرنا برفقة العديد من المريدين خاصة من أصر منهم على ملازمتي وخدمتي من أمثال: أحمد بن كوكب الواسطي الذي خدمني سبع سنين، وإبراهيم الحلواني الذي خدمني عشر سنين وغيرهما العشرات من طلاب المعرفة فجهزوا لنا القافلة وزودوها بما تحتاج من طعام وشراب، وكنت التقيتُ قبل مغادرتي البصرة أمراء من الخراسانيين والأتراك من الشيبانية، وحددتُ موقفي الشخصي في ما يتعلق بالإلهام على نحو قاطع في مواجهة بقية المتصوفة حيث يعتبرونه من أركان التصوف، وأراه عرضاً، وكسبتُ أتباعاً من أمثال (الهاشمي أبي بكر الربيعي) صهر الشاهد الأهوازي الثري (ابن جانبخش) وحليف بني هاشم من زينية وسليمانية البصرة.

عند وصولي تستر وجدتُ أمي صابرة محتسبة فقدها والدي، وكان معها في الدار أختي التي تصغرنني فواسيتهما، وعرفتهما على زوجتي (أم الحسين) وعلى ابنيّ سليمان وأحمد وبنتي الرضيعة (فوز) ففرحت

أمي برؤيتهم جميعاً، وسعدت بوجودهم إلى جوارها، وأخبرتني عن حالة أبي التي تدهورت فجأة، وأنه كان يريد أن يراني قبل موته ما زاد في حزني عليه فصليت عليه صلاة الغائب، ودعوت له بالمغفرة والرحمة.

ذهبتُ أتأمل تستر بعد أسابيع من وصولي حيث مراتع الصبا، أطوف الأرجاء التي قد تبدلت، وعرفت من بعض من قابلتهم من معارفي فيها أن مفاهيم الناس قد تغيرت أيضاً، وأن المذهب (الملاّمتي) قد انتشر بين الناس حيث بُنيَ على أساس خلع الخرقة والانفصاض عن كل مظهر يرمز للورع والتقوى، ويدعو للتخلي عن الاستسرار، ومن ثم التجرد لتبقى النفس عارية أمام الملأ، واستهدف أصحاب هذا المذهب الانتقاد الذي بلغ حد الاتهام للمتصوفة غير مبالين ببناء القلب وإخلاص المعاملة مع الله فأطلقت زفرتي الوجدية صوب (سر السر) أناديه:

ياسرّ السرّ يدقّ حتى يخفى على وهم كل حيي  
ثم قلتُ فيه بعد وقت:

مكانك من قلبي هو القلب كلّه فليس لشيء فيه غيرك موضع!  
وحطّتك روعي بين جلدي وأعظمي فكيف تراني إن فقدتك أصنع؟!!

شاعت هذه الزفرة الوجدية في أرجاء تستر فتوافد المريدون يريدون المعرفة، وصحبني بعضهم إلى الأهواز سنة خمس وسبعين ومئتين للهجرة حيث شغلني التأمل في أسباب التطاحن بين البشر وانتشار البغضاء بدلاً عن المحبة، وتأكد لي أن الناس لم يلتفتوا إلى الحقيقة الجوهرية التي تتصل بسر الوجود فناديت:

- (أيها الإنسان: أزل الحواجز بينك وبين نفسك ليسطع فيك النقاء

المستكن في ذات نفسك، ويتجلى فيك الجوهر الإلهي الذي يمثل الحقيقة من كيانك الأصلي.

- تسألني كيف؟

- ذلك بأن تغمض «عين الجسد» وتفتح «عين القلب»!

وعظم أمري في الأهواز، وأحبني الناس، ونُسبت إليّ العجائب والغرائب حين انطلقت مخيلة العامة تصوّر الخوارق التي تجاوزت قدرة أي إنسان في نظرهم، ومن أجل توسيع دائرة المرئيين لم أردّ على تجاوزاتهم، لكنني كنت أعطي من طلبني نقودًا، ومن أراد فاكهة أو حلوى أو طعامًا، أحضر كل ذلك لهم بذكر الله، ومن سألني عن شيء خفي عليه أجبته، فكان ذلك مدعاة لرميي بالزندقة والسحر.

مضيت أنتقل بين تستر وبين مدن الأهواز، وأخذت زوجتي «أم الحسين» تصر على معرفة كل شيء عندي بعد أن سمعت من الناس ما سمعت مؤكدة لي أنها لم تخلق للطهو والتنظيف وغسل الملابس فقط فكانت تقرأ ما أكتب، وتتسلل إلى غرفتي الخاصة بكتبي في غيابي فترتب الأوراق والمحابر، وتزيل الغبار، وترش ماء الورد، وبعد أن تأكدت أن غاييتي عظيمة كفت عن معاتبتني، لكنها كانت تحزن لأسفاري الطويلة، وتعرض بإيحاء فألاطفها وأضمها إلى صدري وأعطيتها النقود الكافية للمعيشة، وأترك عند أمي وصية بالرعاية، وأن تتحدث مع أحد أصحابي لمكاتبتني عندما يحدث ما يستحق حضورني، ومع الأيام تعودت أم الحسين على سفري المستمر فقمّت برحليتي مبشراً في بعض المراكز الفارسية المستعربة، ومكثت على الثغور في الشمال مرابطاً لأشهر وفي تفكيري خطوط رئيسية دينية صوفية، وثورة على الخلفاء والأمراء والوزراء الغارقين في الترف والانحراف عن مبادئ

الدين، وعلى العصبية الطائفية التي مزقت الأمة الإسلامية، وأنتجت اتجاهات وأفكارًا تميل إلى التطرف كنتيجة طبيعية لمقاومة الفساد والانحراف واتخاذ الدين وسيلة لتحقيق أغراض السلطة والمصالح، وتجنبتُ في دعوتي الفِرَق الدينية التي ظهرت على أشدها حتى لا يظن أحد بأنني أدعو إليها.



ارتحلتُ إلى خراسان سنة ست وثمانين ومئتين للحجرة، وهي البلاد التي تقع بين نهر (أموداريا) شمالًا وشرقًا، وجبال هندوكس جنوبًا، وسجستان غربًا، وفيها نشاط لحركة القرامطة، ولمدرسة البسطامي الصوفية إلى جانب المعابد البوذية حيث شذني تمثال «بوذا» في وادي باميان، وتماهيت مع مدرسة التصوف البوذية (النيرفانا) التي تعني حالة الاستنارة الروحية، وتقوم على أمور ثلاثة هي (الفضيلة، والحكمة، والتأمل)، ويتم الوصول إلى كل واحد منها عن طريق وسائل مختلفة، أولى هذه الوسائل هي اتباع سلوكيات أخلاقية صارمة، والامتناع عن العديد من الملذات، وهناك وسائل أخرى تهدف إلى التغلب على الجهل عن طريق التمعّن الدقيق في حقيقة الأشياء، ثم إزالة الرغبات عن طريق تهدئة النفس وكبح الشهوات، وتشتمل تلك الوسائل على عدة تمارين نفسانية من أهمها ممارسة التأمل المعروف بـ (ذيانا) لفترة طويلة كل يوم عن طريق إعمال العقل في جملة من الأفكار، أو الصور، وتثبيتها في الذهن، وشيئًا فشيئًا يمكن أن يتحول العقل، ويقتنع بحقيقة العقائد المختلفة للبوذية، فيتخلص من الشوائب والأفكار الخاطئة، والمناهج السيئة في التفكير فتطور بالتالي الفضائل التي تؤدي إلى الخلاص،

وتتبدد العادات السيئة المتولدة عن الشهوة عن طريق اتباع هذه التمارين والتزام الأخلاق النبيلة، ويمكن للراهب البوذي أن يصل في ظرف زمني قصير إلى الخلاص.

وفي تلك الرحلة تماهيتُ أيضًا مع مدرسة الهند الصوفية التي تركز على التصوف الفائق للطبيعة ويعني «فتح القلب لنداء الله»، ورافقني في رحلتي هذه بعض المريدين والأتباع فمكثتُ خمس سنوات أتقل في مراكز (نيسابور، وهراة، وبلخ، ومرو) وأزور قراها وبواديها، وعبرتُ إلى بلاد ما وراء النهرين (سمرقند، وبخارى) وما جاورهما، وبقيتُ في ثغورها مرابطاً مع الجند الذين يحمون تلك الثغور من غزو الروم عدة أشهر، ثم عدتُ إلى مدينة تستر فوجدتُ أمي قد فارقت الحياة فوقفت على قبرها مصلياً وداعياً أطلب منها العفو عن تقصيري، إذ لم أبق إلى جوارها لخدمتها، ووجدتُ زوجتي قد ولدت ابني (عبد الصمد) فأقمت مع أسرتي حزيناً على فراق أمي فخففتُ عني زوجتي وأختي ذلك الحزن، وشغلني أبنائي بطلب اللباس والأحذية وبعض لوازم القراءة والكتابة فقد حرصت أم الحسين على تعليم سليمان وأحمد في الكتاب، وأصبحتُ يجيدان تلاوة القرآن والكتابة، ومضيتُ بعد حين أستأنف وعظي بعد أن تناقل الناس عني الكرامات، وأثهمتُ بالشعوذة بسبب ما منَّ الله عليَّ من هبات، وعندما ضاق الناس من كلامي وتعبي أردوا بي شراً، وعزم بعض الجهلة على قتلي فرميتُ منديلاً في الهواء وطرتُ متعلقاً به حتى غبت عنهم فاتهموني بالسحر، وكنت ذات يوم أمشي في سكة في البيضاء فظهر ظل من فوق السطوح فوق علي فنظرت فإذا بحسناة لم أر مثلها قط فقلت لموسى بن أبي ذر البضاوي وهو بصحبتني: سترى وبال هذه النظرة علي ذات يوم.

وكنت إذا طلب الناس فاكهة أقدمها لهم حتى لو طلبوا فاكهة الشتاء في الصيف، أو فاكهة الصيف في الشتاء بفضل الله، وأمد يدي في الهواء وأعيدها مملوءة دراهم أحدية بقولي: (قل هو الله أحد) سميتها دراهم القدرة، ومضيتُ أخبرُ الناس بما أكلوه، وما صنعوه في بيوتهم ليعلموا ما وصلت إليه من كشف فيعتقدون أنني أسخر الجن.



بعد عام هيأت لأسرتي بيتاً مناسباً في تستر، وأمنت لهم بعض المال والطعام وارتحلت وحيداً إلى الهند في سفر طويل وشاق عبر البحر من بندر الأهواز إلى كراتشي وقصدت (ملتان) شرق نهر تشناب الذي يصب في نهر مهران السند وعليه مزارع واسعة، وجدت ملتان مدينة مليئة بالأسواق والجوامع والضرائح والقبور، واسمها منسوب إلى صنم يحج إليه الهنود ويتصدقون عليه بأموال جمّة، وحلي كثيرة وطيب ما يقصر الوصف عنه تعظيماً منهم له وإجلالاً، وله خدام وعباد يأوون إليه، وينفقون ويلبسون من ماله المتصدق به عليه، والصنم على صورة الإنسان مربع على كرسي من جص وأجر قد ألبس جميع جسده جلدًا يشبه السختيان أحمر لا يتبين من جسده شيء إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن بدنه من خشب، ومنهم من يقول من مرمر، ومنهم من يدفع ذلك القول عنه وينكره، غير أنه لا يُترك بدنه مكشوفاً، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرصع، والصنم قد تربّع ومد ذراعيه على ركبتيه، وبالرغم من دخول الإسلام إلى ملتان وغيرها من المدن الهندية فإن عباد الصنم ما زالوا يحجون إليه، وقد دخل الإسلام ملتان مع (محمد بن يوسف الثقفي) الذي سمي «ملتان» (فرج الذهب) أو (ثغر الذهب)،

لأنه أصاب بها أربعين بهارًا من الذهب، والبهار ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون منًا، وكلها في بيت واحد، وقد بقيتُ فيها عدة أشهر أطوف وأأمل، ثم ارتحلت إلى كشمير وهي المنطقة السهلة في جنوب جبال الهمالايا من الجهة الغربية شمال غرب الهند، ثم قصدتُ مدينة (طرقان) على حدود الصين وصعدت عبر نهر كيمونغ، وبقيت سنة كاملة أتعرف على مسالك الحكمة في تلك البلاد وأزداد تعمقًا في الحقائق، وتعلم رياضة (اليوغا) حتى أجدت قدرًا منها.

وهناك في «طرقان» ظل حلم قتلي يزورني بين الفينة والفينة، فحينًا أراني مصلوبًا، وأخرى أرى جسدي مقطوعًا، فعدت في نهاية العام إلى أسرتي في تستر وقد أصبحت مشهورًا فمضيتُ أتجول في المدن المجاورة، ودخلت أصفهان وكان (علي بن سهل الصوفي) مقبولًا عند أهلها فأخذ يتكلم في المعرفة فقلت له: يا دسوقي تتكلم في المعرفة وأنا حي! فرد عليّ بأني زنديق.

وكنت ذات شتاء في طريقي إلى «اصطخر» جنوب فارس ومعني أحد المريدين ويدعى السّمري فلما قطعنا جزءًا من الطريق قال: أشتهي خيارًا.

- في هذا الوقت؟!

- عرضتُ لي رغبة لا أعرف سرها.

بعد ساعات وصلنا إلى سفح جبل غطاه الثلج قلت: أما زالت رغبتك في الخيار؟، قال: نعم، فأدخلت يدي وأخرجت له خياره فأكلها وشكر.



## «شاهد»

عن عمران بن موسى قال: سمعت أحد البصريين يقول: كنت أنكر على الحلاج وأقدح فيه حتى مرض لي أخ وكدت أموت أسفًا عليه فهمت على وجهي مما داخلني من الحسرة عليه حتى وقفت على باب الحلاج فدخلت وقلت: يا شيخ أخي أشرف على الموت فادع له فضحك وقال: أنجيه بشرط تفي لي به.

قلت: وما هو؟!!

قال: لا ترجع عن الإنكار عليّ بل تزيد، وتشهد عليّ بالكفر، وتعين على قتلي فبقيت مبهورًا فقال: لا ينفعك إلا قبول الشرط.

قلت: نعم أفعل، فصب شيئًا من الماء في سكرجة وبصق فيها وقال لي: مر عليه وأجعل من هذا الماء في فيه فذهبت وفعلت ذلك فقام أخي في الحال كأنه لم يمرض، أو كأنه نائم فانتبه فرجعت بأخي إليه وشكرته فضحك وقال: لولا أن الله تعالى قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾<sup>(1)</sup> لكنت أبصق على النار حتى تصير ريحانًا على أهلها.

(1) سورة السجدة، الآية: 13.



## 7

بعد عودتي إلى تستر من رحلتي إلى الهند والصين تلقيتُ دعوة من كاتب الدولة (حمد القنائي)، وهو أحد المريدين النافذين في بغداد، للإقامة في عاصمة الخلافة.

توجهتُ إلى بغداد وبصحبتي زوجتي وأبنائي وأختي ومجموعة كبيرة من أتباعي سنة تسع وثمانين ومئتين للهجرة بعد أن سبقتني شهرتي التي زاد عليها الناس ما أحدث صدًى كبيراً عند دخولي، وتردد هذا الصدًى في قصور بغداد وحراراتها.

استقبلني «القنائي» وأعد لي بيتاً للإقامة في وسط المدينة قريباً من سوق البزازين حيث تزدهم قوافل تجارة الأقمشة المجلوبة من كل أرض إلى عاصمة الخلافة، وتمتد الأسواق وتتنوع في أحياء كثيرة فكانت بغداد المدينة التي لم أر قبلها بقصورها العظيمة، وأحيائها الكثيرة، وشوارعها الواسعة، وأسواقها المكتظة التي تعج بحركة البيع والشراء في كل حي، وفي كل زاوية للسوق مكان للطعام والشراب، وعلى أطراف أحيائها بساتين غناء تُسقى من النهر عبر قنوات جميلة، وفيها من الأشجار والورود والفاكهة ما لم أعرفه من قبل، وتنتشر منابر العلم التي جاوزت العد، وتعددت فيها المشارب، فسحتُ فيها زمناً أتعلم من الناس كل فن فسمعت المغنين وشاركت أصحاب اللهو،

وجالست العطارين وأصحاب الحرف والطب والصيدلة فرأيت طرُقاً لا حصر لها في تقطير العطور وصناعة النسيج والصبغة والحلي ومخاليط الصيدلة، كل هذ وأكثر في بغداد عاصمة الدنيا التي إليها تفد كل أصناف البشر، ورأيت في شوارعها الحواة ومرقصي الثعابين والقرادين الذين يمتعون الناس بحركات قرودهم وحيواناتهم المدربة فيتحلّق حولهم خلق كثير، ويطوف في أحيائها شحاذون يمارسون الحكي والقص عن أحوال الأمم والقادة وتغير الأحوال وتقلب الأزمان، ومع كل واحد منهم ولد صغير يقرع الطبل لتخرج النساء والأطفال عند الأبواب للاستماع إلى حكاياتهم وتقديم الدراهم، أو الفاكهة، أو الطعام لهم.

ولبناء بغداد حكاية يتداولها الناس، فمنذ رغب الخليفة (أبو جعفر المنصور) في بناء عاصمة جديدة لدولته بعيدة عن المدن التي يكثر فيها الخروج على الخلافة كالكوفة والبصرة، وعاصمة تليق بمكانة الدولة الإسلامية المتصاعدة فاختر بعد تدقيق وتمحيص موقعها بين نهري دجلة والفرات على الضفة الغربية لدجلة، حيث كانت تقوم قرية تسمى بغداد كان يجتمع فيها تجار الفرس في رأس كل شهر، واسم القرية الأصلية في ذلك الموقع (بغداد) و(بغدان)، ومنها يشتق فعل السكون تبغدد وسماها الخليفة (مدينة السلام) تيمناً بدار السلام، وهو اسم من أسماء الجنة، أو نسبة إلى نهر دجلة الذي يسمى نهر السلام، وهو الاسم الرسمي الذي ظهر في وثائق الدواوين العباسية وعلى النقود والأوزان، كما أطلقت على المدينة أسماء أخرى مثل (مدينة المنصور) و(مدينة الخلفاء) و(المدينة المدورة) و(الزوراء)، ولكن الاسم القديم (بغداد) هو الذي ظل عالماً في أذهان الناس وتردد على ألسنتهم، فاحتفظت المدينة بذلك الاسم، وتميزت بغداد باعتدال المناخ وحسن الموقع،

وقد وضع الخليفة بيده أول حجر في بنائها سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة الموافقة لسنة اثنين وستين وسبع مائة للميلاد، واستخدم عددًا من كبار المهندسين للإشراف على هندسة دورها وطرقها ومرافقها، وجلب إليها أعدادًا هائلة من البنائين والصناع فعملوا بجد وهمة حتى فرغوا منها في سنة تسع وأربعين ومائة للهجرة، وانتقل إليها الخليفة وحاشيته ومعه دواوين الدولة، وأصبحت منذ ذلك الحين عاصمة الدولة العباسية.

ولم يكتف المنصور بتأسيس عاصمته، بل عمل على توسيعها سنة إحدى وخمسين ومائة للهجرة بإقامة مدينة أخرى على الجانب الشرقي منها سماها الرصافة، جعلها مقرًا لابنه وولي عهده «المهدي» وشيد لها سورًا وخذقًا ومسجدًا وقصرًا، ثم لم تلبث أن عمّرت الرصافة واتسعت، وزاد إقبال الناس على سكنائها.



ظل تجوالي في بغداد في الليل غالبًا بصحبة صديقي أبو بكر (دلف بن جعفر الشبلي) الخرساني الذي عمل والده في دواوين الخلفاء فتربى الشبلي مع أبناء الوزراء والأمراء فلما عمل هو في دواوين الخلافة هاله الفساد الذي فيها فترك العمل وذهب إلى الشيخ الجنيد يطلب العلم فتصوف، ثم إنني وجدته بين المريدين في مسجد المنصور ببغداد فرأيت فيه الزهد والإقبال على الآخرة فأصبح من أقرب الناس إلي، يصحبني في الغالب إلى نواحي بغداد حيث كنا ندخل حاراتها لمعرفة أحوال الناس، ونخرج إلى فلواتها ومقابرها عندما نضيق بحياة القصور ونشد الوحدة والتأمل، وكنا نزر قبر الإمام (أحمد بن حنبل) للعبرة والسلام

عليه وعلى ساكني المقبرة فكنت أشعر بأن موتى المقبرة أحياء، وبأن الأحياء في بغداد أموات.

ذات مساء خرجتُ إلى الصحراء وحيداً من جهة الكرخ فإذا أنا بكلب جائع يتضور فعدت من فوري وأحضرت له حملاً مشويًا وبعض الخبز فأكل حتى شبع وذهب، وقلت في نفسي هذا سبب القلق الذي أخرجني إلى هنا.

ودخلت ذات مرة إلى أزقة يقصدها عدد من الغلمان والفتيات بقصد الدعارة وشرب الخمر فوجدت في طريقي غلامًا كالبدن فسألته من أين؟

- من حلب.

- ماذا أتى بك يا غلام إلى هنا؟!

- حاجة أفضيها.

وأخذ يتغنج في كلامه حتى لكأنه كاعب لعوب.

- ألا يوجد في حلب ما يغنيك عن بغداد؟!

- لا، لا، هذه بغداد فيها كل شيء، ثم أتى رجل وأخذ بيده وذهب.

عدت إلى مسجد المنصور متحيرًا في ما سمعتُ ورأيت، كيف ينحدر الإنسان إلى هذه الدناءة؟! وبينما أنا على تلك الحال دخل (بهرام بن مرزبان المجوسي) فرمى عليّ بكيس فيه ألف دينار فرددته عليه فأبى، فقامت من فوري فوزعتها على من في المسجد من الفقراء ولم أبق دينارًا واحدًا.

ثم خرجتُ من المسجد إلى سوق القطيعة، وعرجت على الوراقين فاشتريت ورقًا لأبدأ في تدوين أشعاري وأفكاري، وكان وقع حريق باب الطاق من الجانب الشرقي إلى طرق الصفارين فاحترق ألف دكان مملوء متاعًا للتجار.

ثم إنني دخلت ذات يوم مسجد المنصور فإذا بأبي القاسم (الجنيد) يتكلم على المنبر، وله مكانة عند الناس فهتفتُ أمام الجميع: «يا أبا القاسم: إن الله لا يرضى من العالم بالعلم حتى يجده في العلم، فإن كنت في العلم فالزم مكانك وإلا فانزل».

فنزّل الجنيد، ولم يتكلم مع الناس شهرًا كاملاً، وبدأ صراع عنيف بيننا، وكان لهذا الصراع صدى عميق في بغداد فقد حدثني (أحمد بن يونس) وهو من طلبة العلم الذين يحضرون مجالس الشيخ أن الجنيد هاجمني في جمع من علماء بغداد كانوا في ضيافته، ورماني بالسحر والشعوذة جهارًا حسدًا منه وغيره، ولم يدافع عني إلا ابن خفيف، وعندما ذهبت إليه في مسجده في الشنبرية قال لي في لحظة غضب: ستقتل؟ فضحكت وأجبتّه: نعم.. سأقتل.

وكنت قد بدأتُ حوارًا مع علماء الكلام بعد حين من وصولي بغداد في مسائل (الأمر، والإرادة، والمشيئة الإلهية، والأفعال وتعلقها بالقضاء والقدر) واختياري التجربة الصوفية المباشرة لحل هذه المعضلة بين اللطف الإلهي والقضاء والقدر، والصراع بين الخير والشر الذي تنبأتُ بوقوعه فالخير هو الأمر، والشر هو الإرادة، وليست المعرفة الفكرية للقضاء الإلهي هي التي تقربنا من الله بل إن الطريق هو الحب، وهو الأنسب للوصول إلى الله، فخصوع القلب للأمر الإلهي في كل لحظة هو رأس الأمر.

طال الحوار والجدال وفي عقول الشيوخ الكبار تحدّ واضح، وفي نفس الوقت لديهم لهفة لمحاولة فهم رسالتي، ولكن أفهام العقول اختلفت، وميول القلوب تنوعت، وأصبحت الخصومة سافرة، ولم تكن البيئات العلمية في بغداد على استعداد عقلي لأن تتوافق مع منهجي، وكذلك التجمعات الصوفية لم تساهم في دعوتي الإصلاحية.

بعد أربعة أعوام غادرتُ بغداد إلى مكة المكرمة حاجًا حين ضاقت بي نفسي من جدل العلماء وتتبعهم لي بالإساءة وكثرة التهم، وشعرت برغبة إلى الخلوة في رحاب البيت أيامًا فاستودعت أمر زوجتي وأولادي صديقي القنائي وقد جاوز ابني سليمان العشرين فعمل في حوانيت بغداد منذ وصولنا، وأصبح قادرًا على الإنفاق على أهله ورعايتهم، وأخبرت أصحابي بعزمي على العمرة والحج فصحبني أربعمائة كان فيهم (أبو يعقوب النهرجوري، وإبراهيم بن شيان، وأبو عبد الله المغربي) فأمضينا أسابيع في الطريق تحملنا الجمال، ونقتات على التمر والماء وما وقعت عليه أعيننا من الصيد حتى إذا ما أصبنا غزالًا بسهم أو مجموعة أرانب مما يعترض طريقنا توقفنا عن السير، وأرحنا الجمال، وأشعلنا النار وشوينا الصيد، غير تلك الوقفات الضرورية للصلاة وسقي الجمال وإطعامها لتكون قادرة على خوض رمال الصحراء، ولما وصلنا (ذات عرق) أحرمتنا بالعمرة، وعند بلوغنا مكة قصدنا البيت فطفنا وسعينا، ثم تفرق أصحابي في حارات مكة ينشدون السكن والعمل، وبقي معي قليل منهم فأقمت بالبيت أيامًا، ثم إن أبا يعقوب طلب مني ذات مساء عشاءً للقوم فقلت: نخرج بهم إلى جبل أبي قبيس فوجدنا قومًا يعدون طعامًا فأكلنا معهم، ولما شبع القوم قلت: ألا تأكلون الحلاوة؟ قالوا قد أكلنا التمر، قلت: إنني أريد شيئًا منها

مسته النار فغبت عنهم وعدت بطبق كبير من الحلوى الزبيدية فأكلوا منها ما أكلوا، ثم إن أبا يعقوب شك في أمري فحمل شيئاً منها إلى سوق الحلوى في مكة فلم يعرفوها، لكن امرأة قالت له: هذه الحلوى تُصنع في زبيد باليمن، ولا يمكن حملها إلى هنا فتأكدت في نفسه الشبهة، وكانت المرأة خارجة إلى زبيد فأوصاها أن تفحص وتساءل هل ضاع لأحد منهم طبق حلوى، وطلب منها أن تكاتبه على مكان معلوم في مكة اتفقا عليه وأعطاهما نقوداً لتفعل، فلما وصلت بعثت إليه بعد حين: (أن أحدهم فقد طبق حلواه ولكن الحلاج بعث إليه بقيمة الطبق وأكثر) فتأكد أبو يعقوب النهر جوري أن تلك من كراماتي، ثم اختليتُ معتمماً بقمة جبل أبي قبيس، وانقطعتُ عن الناس فصعدتُ إلي في هاجرة يوم شديد الحر (إبراهيم بن شيان، وأبو عبد الله المغربي) وأنا جالس على الصخرة في رأس الجبل والعرق يسيل من جسدي حتى بلل الصخرة فهالهما المنظر فأشرت لهما أن ارجعا فرجعا، ومضيت في التدوق والتوغل والعكوف على الذات العارفة باعتبارها مرآة الكون وبهذا المعنى رددتُ:

(إذا هجرتَ فمن لي، ومن يحمل كلي، ومن لروحي وراحي يا أكثرني وأقلي، أحبك البعض مني يا كلَّ كلي، فمن لي إن لم تكن لي!).

وشاع في مكة بعد الحج اعتراض القائد (زكرويه) القرمطي مع أصحابه لقافلة حجاج من أهل خراسان وهم قافلون من مكة وفيهم التجار والأثرياء، ومعهم البضائع والهدايا التي حملوها عند عودتهم فقتلهم عن آخرهم، وأخذ أموالهم وسبى نساءهم فكان قيمة ما أخذه منهم ألفي ألف دينار، وعددٌ من قتل عشرين ألف إنسان، وكانت نساء القرامطة يطفن بين القتلى من الحجاج وفي أيديهن الآنية من الماء يزعمن أنهن يستقن الجريح العطشان، فمن كلمهن من الجرحى قتلنه وأجهزن عليه.

ولما بلغ الخليفة المكتفي بالله خبر الحجيج وما أوقع بهم القرمطي الخبيث وجيشه، جهز إليه جيشاً كثيفاً، فالتقوا معه فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقُتل من القرامطة خلق كثير، ولم يبق منهم إلا القليل، وذلك في بداية سنة أربع وتسعين ومّتين للهجرة.

وضرب رجل زكرويه بالسيف في رأسه فوصلت الضربة إلى دماغه، وأخذ أسيراً فمات بعد خمسة أيام، فشقوا بطنه وصبروه وحملوه في جماعة من رؤوس أصحابه إلى بغداد، واحتوى عسكر الخليفة على ما كان بأيدي القرامطة من الأموال والحواصل، وأمر الخليفة بقتل أصحاب القرمطي وأن يطاف برأسه في سائر بلاد خراسان لئلا يمتنع الناس عن الحج.



اتهمني بعض خصومي أنني أحضّر لإعمال السحر والشعوذة وتحضير الجن، وكنت أسمع ولا أبه مضمراً التحضير لرحلتي الكبرى في سبيل مبادتي، فغادرت مكة بعد الحج مرة أخرى إلى الهند بعد أن كتبت رسالة إلى زوجتي وأبنائي في بغداد أخبرهم بعزمي على السفر إلى الهند بعثتها مع أحد أتباعي وركبتُ بعد أيام مع قافلة إلى البحرين ولم أكن أملك من النقود شيئاً فشارطت كبير القافلة على الدفع عند الوصول، وأمضينا في الطريق إلى البحرين التي تقع غرب نجد إلى الخليج شرقاً ما يقرب من شهرين ذقنا فيهما صنوف التعب والمشقة حين كانت الريح تسف علينا رمال صحراء الدهناء الحمراء، وكان حر الشمس يمنع سيرنا في النهار فتحتمي ببعض الجبال الصغيرة، وولجأ إلى بعض الكهوف فزاراً من حر القيظ، وعصّت الثعابين بعض ركائبنا

فماتت، وهاجمتنا ضباع ضارية، وذئاب مسعورة فلطف الله بنا، ومررنا على قرى باليمامة بيوتها من الطين، وفيها بعض مزارع النخل والحبوب فقصدنا بعضها للشرب والأكل والاعتسال فوجدنا نساءً يظفن بالنخل، ويكشفن عن فروجهن بين الحين والآخر فقبل لنا: إنهن عقيمات يطلبن الذرية، وبعضهن يظفن بالنخل لطرد الحسد، عندما وصلت القافلة البحرين نزلنا في هجر وهي مدينة صغيرة بيوتها مبنية من حجر الجير، وهناك اضطرت إلى العمل أسابيع في المزارع أسقي الزرع وأحصد الثمار حتى جمعت بضع دنائير سدّدتُ منها أجر القافلة، ثم ذهبت إلى جزر البحرين على الخليج، وتنقلت بين مينائي المنامة والمحرق، وبقيت أسابيع أخرى أحمل بعض البضائع إلى التجار، ثم ركبت البحر إلى الهند على سفينة تجارية تحمل البضائع والركاب فكانت الرحلة طويلة وشاقة استمرت ما يقرب من ثلاثة أشهر بسبب تغير اتجاه الرياح، ومع أن لدى أصحاب السفينة خبرة كبيرة حيث يقومون برفع الأشرعة وتحويل اتجاهها بحسب اتجاه الرياح لتبقى في المسار الصحيح مستعينين بالأغاني التي يرددونها وخاصة «شلة الهمول» كما سمّوها، وهي نشيد يطلقه اثنان أو ثلاثة ويردد البقية نهاية البيت، وعندما يحل الليل يتجمع الركاب لتناول وجبة عشاء على ظهر السفينة ويتحدثون عن البيع والتجارة وأنواع البضائع التي يحملونها إلى بومباي، وتلك التي يجلبونها عند عودتهم وأنا لا شأن لي في هذه الأمور، وعندما ينتهي حديثهم عن التجارة والمال يقوم بعض عمال السفينة بترديد الغناء مع الطبول والتصفيق فيما سموه (الرحماني، والكاسر) فهمت من كلماته:

(يا من حضر ذكروا النبي وصلوا صلاة في صلاة  
بلا عدد شيبة وصبي ساعة وصول الصافنات)

و غالباً ما يقوم بعضهم بالرقص لطرده الملل عن المسافرين.

كنت أصلي بالمسافرين عندما تحين مواعيد الصلاة جمعاً وقصراً ما عدا صلاة الصبح وأعظمهم أحياناً مع شعوري بعدم رغبتهم في المواعظ، وأحياناً يسألني أحدهم عن أمر من أمور الدين والدنيا فأجيبه فشاع في السفينة لقب الفقيه، وكانت معنا في السفينة امرأة هندية عظيمة الجمال وحولها خدم من النساء والرجال، وفي ذات مساء طلب مني شاب مفتول العضلات والشوارب أن أذهب إلى سيدته لأنها تعاني من المرض، عندما دخلت عليها في مكانها المخصص رأيت ما لم يخطر ببالي أنه في السفينة من الجمال والملابس والفاكهة، وبدأت المرأة تشتكي لي من آلام في ظهرها ورأسها، مسحتُ عليها بآيات الشفاء السبع فشعرت بالراحة، وعدتُ إلى مكاني المخصص على ظهر السفينة لأنام.

في مساء اليوم التالي جئني الشاب يطلب حضورى لسيدته لشكرني فذهبت، وجدتها قد أعدت لي طعاماً وشراباً وفاكهة وقد لبست زينتها وكشفت عن جمالها في عيني وأسعيتني دعجاوين، وفم مدور مكتنز الشفتين، تخفي خلفهما أسناناً كالبرد تظهر إذا افترت عن ضحكة خجولة، وشعر ينسدل على عنق كعنق الغزال تزينه قلادة تحط نهايتها بهلال مرصع بالياقوت بين نهدين عظيمين في صدر واسع يحمله خصر نحيل يفضي إلى ردفين كبيرين تحملهما ساقان كالمرمر، وبعد حديث عن تجارتها وأحوالها وأسباب رحلتي طلبت مني أن أزورها كل مساء.

كانت مغرية جداً، والحديث معها ليس صعباً فهي تتحدث العربية

بلكنتها الهندية، وشعرت أنها تريد مني معاشرتها فحاولت أن أظهر لها عدم المبالاة فقدمت لي صرة من الدنانير لتستميلني قائلة: إنها أجرة العلاج، فامتنعت عن أخذها مع شعوري بخبيتها، واستأذنت.

ظل الشاب المكلف بدعوتي يطلب مني الحضور بين الفينة والأخرى فأعترت أحياناً، وأذهب أحياناً.

وصلت سفيتتنا بومباي فبعثت لي المرأة ذلك الشاب ليطلب مني الحضور معها إلى بيتها، وأخبرني أنها تريد الزواج فهي عزباء، وهي من أسرة عريقة فشكرته ووعدته التفكير في الأمر وذهبت إلى نزلٍ لأستأجر غرفة فأنا لا أعرف كم أقيم في المدينة لأن هدفي نشر الدعوة وليس الزواج والإقامة، تجولت في بومباي أياماً شعرت خلالها بمتابعة الشاب لتحركاتي لعله ينتظر مع سيدته قدومي إليها، لكنني قررت عدم البقاء فترحلت عبر الأقاليم إلى أن وصلت إلى (بوتان) جنوب الصين، وفي هذه الرحلة الفارقة اعتنق فيها الإسلام عدد كبير جداً على يدي، وذهبتُ بعد ذلك إلى السند وكشمير، وتعلّمت في هذه الرحلة أنواعاً من المعرفة بمسالك الحكمة الهندية غير التي عرفتها من قبل في رحلتي الأولى، واطلعت على رياضة (اليوغا) بشكل أوسع من ذي قبل، وكنت أتعلم المعارف من خلال مترجمين من المانويين والأوغوريين، أما ما يخص الحقائق العرفانية التي تخفى على الناس ولا يعلمها إلا الأولياء فقد سلكت إليها طريق التأمل والإشراق العرفاني: وعلمتُ (أن عين التوحيد مودعة في السر، والسر مودع بين الخاطرين، والخاطران مودعان بين الفكرتين، والفكرة أسرع من لواظ العيون)

يا كلّ كلي وكلّ الكل ملتبس وكلّ كلك ملبوس بمعنائِي

يا من به علقته روجي فقد تلفت وجدًا فصرت رهينًا تحت أهوائي  
لم تدم رحلتي هذه إلى الهند طويلًا فعدت إلى أسرتي في بغداد،  
ولأنني زرت خلال رحلاتي الكثير من المدن فقد كنت كلما أشرفتُ  
على مدينة من تلك المدن التي زرتها أعرف طباع أهلها من ملامح  
بيوتها وطرقاتها فلكل مدينة ملامح تخصها في هندسة بيوتها وألوانها،  
وسعة دروبها أو ضيقها، ولم أف متأملًا لمدينة إلا وتوقعت سلوك  
وطبائع ساكنيها، فالمدن البيضاء تدل على رحابة صدور أهلها، وصفاء  
سرايرهم، والمدن ذات القلاع والحصون تدل على الطبقية بين السكان  
مثلما تدل المدن ذات الطابق الواحد على تساوي الناس وتقاربهم، أما  
المدن ذات الألوان المتعددة فتدل على تنوع أصول السكان واختلاف  
مشاربهم، وغالبًا ما تجد الحسد والتناحر في المدن التي توحى لك  
بالفقر وتلحظ فيها رثاثة أحوال ساكنيها، أما المدن التي يكثر بها  
المتسولون، وينتشر في طرقها المجذومون فتلك مدن ظالمة فيها  
أثرياء لا يؤدون حق الله في أموالهم، أما تلك التي تضج بأسواق النخاسة،  
وتفوح في سوائها روائح الفساد الأخلاقي المنتشر بين الأغنياء والفقراء  
على حد سواء فتلك مدن السلاطين والأمراء، ووجدتُ بعض المدن  
يسكن فيها قلبي، وتهدأ مشاعري منذ ساعة دخولها فأقيم بها ما شاء الله  
مطمئنًا، وأخرى تملأ قلبي بالسأم، وتقذف فيه القلق فأتركها في أسرع  
وقت يمكنني فيه مغادرتها.

## طاسين «الفهم»

أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة، والحقيقة لا تتعلق بالخليقة،  
والخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تتصل إلى الحقائق، والإدراك  
إلى علم الخلائق صعب، فكيف إلى حقيقة الحقيقة؟! الحق وراء  
الحقيقة، والحقيقة دون الحق.

## الحلاج



## 8

بعد رحلتي الأخيرة إلى الهند والصين وما جاورهما من أقاليم، وبعد التطواف والبحث والتأمل والزهد والخلوة في حضان الحنين للتزود بروح الإيمان وجوهر التدن خلال رحلاتي السابقة قررت أن أدخل في معركة مواجهة الفساد والانحلال والترف المغلف بصراع مذهبي ديني في بغداد التي عدتُ إليها وقد اتسعت دائرة الصراع الطائفي فيها، وتفشت العصبية بين الفرس والترک من جهة والقبائل العربية من جهة أخرى، ورأيتُ ترفاً ممجوجاً، ونظاماً فاسداً، وخلافة ماجنة بيد الجوارى والغلمان، وتلفتُ حولي باحثاً عن حلٍّ بالتصوف الذي بمقدوره احتواء كل هذه الصراعات بروحانيته ليلم الشتات ويعانق القلوب.

عدتُ إلى بغداد فوصلتها في النصف الثاني من سنة خمس وتسعين ومئتين للهجرة في موكب بهي من الأتباع والمريدين بعد أن تركتُ في كل مكان زرته أثراً وعبرة يلجأ إليها المتأملون، وغمرتُ بشخصيتي وقوتي الروحية قلوباً وأرواحاً رأيتُ في منهجي الملاذ لآلامهم وأحزانهم بدعوة أساسها وروحها حب الله الذي تذوب فيه الأهواء والمصالح والفرقة، ويكون فوزها الأكبر في التماهي مع مبدع الوجود الذي ينير الروح ويشعل القلب حباً متجلياً لأسرار الكون وحياة الخلود التي لا تنتهي بموت الإنسان.

بتلك المبادئ وسمو الصيت وجاذبية وسحر الشخصية التي وهبني الخالق جلّ وعلا دخلتُ بغداد على قرع الطبول فاستقبلني أهلي وأصحابي وأتباعي، وشعرت بأن بغداد تزهو بقدومي، بغداد التي يُحمل إليها خراج الأرض، ومع الخيرات القادمة حُومِل إليها الترف الذي تدثر في جوانب كثيرة منه بالفسق والفجور والنفاق، كما التقى فيها تراث الفكر العالمي على اختلاف مناهجه فتمازجت وتصارعت أفكار الفلاسفة والملحدّين والمنجمين والسحرة، وتداخلت مع أطماع التيارات المتصارعة على السلطة والدنيا، وكل هذه التيارات التقت بأفكار الإسلام فتحولت بغداد إلى ساحات للحرب الفكرية بين تيارات ومذاهب لا حصر لها.

حين دخلتُ بغداد تحيطني حاشيتي اهتزت عمائم العلماء، وتنبهت حلقات الصوفية، وترددت الأحاديث الصريحة والهامسة عن الرجل المبارك صانع المعجزات ومعها خيوط الغيرة من الرجل الفذ الذي قل نظيره في رأي غالبية الناس بينما هو المشعوذ والساحر في رأي الأعداء، بدأتُ بالدعوة إلى إصلاح النظام، وما لبثتُ دعوتي الإصلاحية ضد فساد الخليفة المكتفي بالله وحاشيته من الأمراء والوزراء الذين ملأوا القصور بالجواري والغلمان والخمور والفسوق، يشاركهم في ذلك كل من له مصلحة معهم من التجار والقضاة والعلماء، وغايتي أن تكون هناك خلافة تشعر بواجبها تجاه الله، وتشعر بواجبها تجاه الإنسان.

ابتعتُ لأسرتي بيتًا في الكرخ، وجعلتُ لي عقارًا في وسط بغداد من فضل مال الهبات التي تدفقت عليّ من أغنياء البلاد التي زرتها والذين سرهم ما سمعوه مني وعني فساعد أجر العقار الذي وكلتُ أمره إلى ابني سليمان أسرتي في تدبير أمور معيشتها، بينما تفرغت أنا لمواجهة الظلم والطغيان.

كان تجار بغداد وأمرؤها ووزراؤها يملكون أموالاً طائلة، أما الخلفاء فقلَّ أن تُحصى أموالهم، وقد حدَّثني (القاسم بن عبيد الله) وزير الخليفة المكتفي بالله: إن الخليفة ورث ثروة عظيمة من والده المعتضد بالله منها الذهب والجواهر والدنانير التي قُدرتْ بعشرات آلاف آلاف إلى جانب القصور والخيول والألبسة التي بلغتْ أكثر من ستين ألف ثوب ومعها من السيوف وأواني الذهب والفضة ما لا يقدر ثمنه.

قررت الدخول على الخليفة لمناصحته في أمر الأمة فأذن لي وزيره ورئيس شرطته (مؤنس الوثاقي) فدخلتُ عليه مجلسه وحوله حاشيته فوجدته رجلاً معتدل القامة، دري اللون، أسود الشعر، حسن اللحية فسلمت عليه، وبقيتُ في مجلسه إلى أن سأل عن حاجتي فناصحته في أمر الدولة التي كثرت فيها الثورات تعبيراً عن الظلم وكثرة الضرائب التي أرهقت الناس، وسرقات الوزراء والولاية لأموال الخلافة فصدّ عني، ونظر في من حوله مستهجنًا حديثي فطلبتُ منه الإذن بالمغادرة فأشار بيده موافقًا، ولم أعد إليه حتى توفي فجأة بعد أسابيع، وأسند الأمر قبل وفاته إلى أخيه المقتدر بالله الذي ما زال في الثالثة عشرة من عمره.

بقي الأعيان في القصر يشوهون صورتي عند الخليفة الصغير المقتدر بالله فغادرت بغداد وحيداً من الأهل والأتباع إلى مكة في حجة ثالثة، انتشر الخبر في مدينة بغداد، في دروبها وحاراتها، وفي رحاب تكيات التصوف، كما تردد في حاناتها وملاهيها، وصل الخبر إلى قصر الخلافة بأنني سأغادر بغداد متوجهًا إلى مكة المكرمة - مهبط الوحي - فسّر بعض الوزراء ذلك.

أمضيتُ أشهرًا في البيت الحرام أستدفعُ بعبير الرسالة، وأناجي رب هذا الكون، ثم اتجهتُ إلى القدس ثم حلب وصولاً إلى الأستانة

بعد وداع مكة إلى الأبد، وكان هدفي من رحلتي إلى القدس وحلب والأستانة معرفة أحوال الرهبان اليهود وقساوسة المسيحية الذين ملأوا دور العبادة في تلك البلدان، والتحاور معهم حول ما هم عليه.

في طريقي من مكة إلى القدس عبرت بنا القافلة طريقاً محاذياً لبحر القلزم في فصل صيف حار فوجدنا مشقة في السير بسبب الأتربة التي أثارها الرياح فمكثنا ما يقرب من شهر حتى بلغنا أرض فلسطين التي كانت في أسوأ أحوالها الاجتماعية بسبب الفوضى والاضطراب الذي نتج عن حكم الطوليين والثورات المحلية التي نشبت في بلاد الشام، وقد انعكس ذلك كله بشكل ملحوظ على حياة الناس فأدّى ذلك إلى الركود الاقتصادي وانعدام الأمن، فضلاً عن الخمول السياسي، وخواء الحياة الفكرية في تلك الفترة.

مكثت أياماً في المسجد الأقصى أتعبت، ثم دخلت كنيسة القيامة، أو كنيسة القبر المقدس التي تقع داخل أسوار البلدة القديمة في القدس حيث بُنيت فوق الجلجلة، أو الجلجثة - وهي مكان الصخرة التي يعتقد أن المسيح صُلب عليها - وتحتوي وفق معتقدات المسيحيين على المكان الذي دُفن فيه المسيح عيسى (عليه السلام)، واسمه القبر المقدس، وسمّيت كنيسة القيامة بهذا الاسم نسبة إلى قيام يسوع من بين الأموات في اليوم الثالث من الأحداث التي أدت إلى موته على الصليب بحسب العقيدة المسيحية، والكنيسة بناء كبير ينقسم من الداخل إلى غرفتين واسعتين، الغرفة الخارجية عبارة عن دهليز لتجهيز الموتى ويقال لها: كنيسة الملاك، أما المدخل الصغير فهو الباب الحقيقي للقبر الأصلي والذي تمّ إغلاقه بحجر إثر موت المسيح كما يقول الإنجيل، وتعلو القبر قبة، ويحيط بالكنيسة بعض المعابد.

شاهدت القُدَّاس الذي قام به بعض المسيحيين، ورأيت بعض طقوسهم الدينية كالصلاة: حيث يقف الفرد أمام تمثال عيسى المصنوع من المرمر المُمسك بالصليب وينحني المصلي عدة مرات ضمًّا كفيه إلى بعضهما، وبعضهم يركع، ورأيت آخرين يرفعون مناجاتهم وتوسلاتهم بالخضوع في الكنيسة، وليس لديهم وقت محدد للصلاة حيث يمكن للشخص أن يصلي متى شاء، ورأيت ممارستهم في تعويد الأطفال بغمس الجسم أو جزء منه في ماء الكنيسة المقدس، أو رشه من قبل الكاهن باسم الأب والابن والروح القدس، وبعضهم يقوم بتغطيس الطفل ثلاث مرات، ويرون أن ذلك يطهر الطفل فينشأ طاهرًا مبرئًا من الخطايا، أما تعويد الكبار فيكون بالاغتسال، وسمعت تلاوة الإنجيل فسألت أحدهم: من تعبدون؟! فأخبرني أنهم يعبدون الله ولا يعبدون ثلاثة آلهة، لكنهم يعتبرون الأم مريم والابن عيسى (عليه السلام) وسيلة تقرب، وبعضهم يعتبر الثلاثة آلهة.

بعد أسبوعين أقمتها في القدس قررتُ الرحيل شمالًا باتجاه حلب التي تقع في أقصى الشمال الغربي من هضبة الشام كأقدم مدينة في التاريخ، ويعود تاريخها إلى القرن العشرين قبل الميلاد، حدثني أحدهم أنها كانت مقر مملكة عمورية وعُرفت باسم يمحاض، ودخلها المسلمون سنة ست عشرة للهجرة، وكنت في الطريق إليها قد ركبت مع قافلة حجيج عائدتين من القدس إلى شمال الشام ومعهم بعض الخيل والجمال ففضلت أن أركب ظهر أحد الجمال بدلًا من الخيل التي لا أجد سياستها، واتجهنا طريقًا يحاذي البحر باتجاه بيروت التي أقمنا فيها عدة أيام، وهي مدينة قديمة يزيد عمرها على خمسة آلاف عام وتقع قرب غابة ضخمة من أشجار الصنوبر، ثم اتجهنا شمالًا إلى طرابلس

الشام، ثم اللاذقية، وبعد ذلك انصرفنا إلى الشمال الشرقي باتجاه حلب، وعند وصولي إليها وجدتها مدينةً عامرة بالحياة يخترقها نهر صغير يُسمى نهر (قويق) ومنازلها جميلة، ومسالكها واسعة، وساحاتها فسيحة تفوح في أرجائها روائح الياسمين، وتنتشر في نواحيها حمّامات مزدحمة، وتمر منها تجارة الشام والروم وديار بكر ومصر والعراق مما أدى إلى انتشار الثراء والرخاء في أهلها مما وفر فيها البيوت المخصصة للمسافرين، وفيها أسواق حسنة كثيرة الخيرات، تثير فواكه البرقوق والمشمش والدراق شهية المتسوق فيها، وبعد راحة يومين في نزل سكنته شرق المدينة قصدتُ أحد حمّاماتها وعليّ جنابة احتلام ألّمت بي رغم جهد السفر فدخلته بعد أن سألت صاحبه مازحًا:

- أدخل حمّامك أحد قبلي اليوم؟

أجاب: لا.

فلما فتحت باب الغرفة الداخلي إذا قائل يقول: أبا مسلم أسلم

تسلم.

وأنشد:

لك الحمد إما على نعمة وإما على نقمة تدفع  
تشاء فتفعل ما شئتَه وتسمع من حيث لا يسمع

فبادرت بالخروج مستفسرًا:

- أنت زعمت أنه لم يدخل حمّامك أحد!

- نعم! وما ذاك؟

- إنني سمعت قائلًا يقول: وأعدتُ عليه بعض ما سمعت.

- أسمعته؟!!

- نعم.

- يا سيدي هذا رجل من الجان يتبدى لنا في بعض الأحيان فينشد الأشعار، ويتكلم بكلام حسن فيه مواعظ، استمع إلى ما يقوله أيضًا؟  
- فسمعه يقول:

أيها المذنب المفرط مهلاً كم تمادى تكسب الذنب جهلاً  
كم وكم تسخط الجليل بفعل سمج وهو يحسن الصنع فعلاً  
كيف تهدأ جفون من ليس يدري أرضي عنه من على العرش أم لا  
شعرت أنه لم يعد لي بالحمام حاجة ما دام هذا الجني يعظ فيه  
وعدت إلى النزل الذي أقيم فيه لأغتسل.

أمضيت أسابيع ثلاثة حافلة بالتأمل في عالم المدينة الصاخبة،  
ثم قررت الذهاب إلى الأستانة عاصمة البيزنط التي تسمى أيضًا  
بالقسطنطينية، خرجتُ مع قافلة صغيرة من الخيل والحميز من شرق  
حلب باتجاه الشمال الغربي سالكًا الطريق إلى عفرين باتجاه طرسوس  
في رحلة تعبدية سادها التوترُ أحيانًا، ولا أنكر أنها زرعت في نفسي  
الذعر في البداية لأنَّ الطريق كما قيل لي تكثر فيه مكان لقطاع الطرق  
الذين يتربصون بالمسافرين إلى بلاد الترك ليسلبوهم ما معهم، وبعد  
راحة نصف نهار في عفرين اتجهنا شمالًا، ومررنا بعدد لا يحصى من  
القرى التي يمتهن أهلها الزراعة والرعي حتى وصلنا طرسوس، وهناك  
عرجت على راهب أشار لي عليه أحد الناس في كهف بأعلى قمة جبل  
بعد يومين من وصولي فحملتُ مخلاة طعامي التي فيها بعض الخبز  
والزيتون والتمر الجاف وزمزية الماء وصعدت فلما رأني مقبلًا اعترته  
حالة من الريبة والخوف من قديمي، ولما دنوت منه قبيل المغرب صاح  
بي: ماذا تريد يا محمدي؟!!

- ما أدراك أنني محمدي؟

- سيمالك في وجهك.

- لا تخف.. أنا مسافر لطلب العلم، وقد أجد لديك بعض ضالتي.

- ابتسم، وأشار لي بالدخول إلى الكهف.

كان الكهف واسعاً من الداخل فيه زوايا تستوعب ثلاثة أو أكثر من العباد، بقيت معه يوماً وليلة أتأمل عبادته وسلوكه فقام عند حلول الظلام فأشعل النار في زاوية للكهف في سطحها فتحة بحجم كف اليد يصعد منها الدخان إلى السماء ثم أخرج دقيقتاً من كيس في زاوية أخرى بقدر ما يسد جوعنا وعجنه بالماء حتى صار قرصاً دائرياً فوضعه على الجمر وبعد أن نضج شطره بيننا وصب من كوز بعض زيت الزيتون فأخرجت من مخلاتي بعض التمر الجاف فأشار علي بإعادته قائلاً: أنت في ضيافتي فأكلنا وتجاوزنا أطراف الحديث عن الحياة، ثم استأذن ليذهب للتعبد والمناجاة في زاوية فأخذت أنا زاوية أخرى لأصلي وأقرأ القرآن حتى أخذني النوم فلم أستيقظ إلا في الصباح.

وجدت الراهب خارج الكهف مقبلاً بكوز ماء جلبه من نبع في شعب قريب فقدم لي بعض حبات الزيتون، وأخرج لي كسرة خبز يبدو أنه أعدها في آخر الليل فأكلتها وشربت الماء وسألته:

- أنصrani أنت؟

- نعم

- من الذي خلق هذا الكون وخلقك وخلقنا جميعاً؟

- الله.

- من هو الله؟

- عيسى.

- هل أفهم من هذا أن عيسى خلق أمه مريم؟ وخلق موسى الذي جاء قبله؟

- عيسى ابن الله.

- إذا كان هو ابن الله حسب قولك فهل تؤمن بأنه قد صُلب على الصليب؟

- نعم.

- هل أفهم من هذا أن الله لم يستطع إنقاذ ابنه من الصلب؟

- إن الله أرسل ابنه لتكفير خطايا ابن آدم.. أقصد أن الله هو الذي نزل في بطن العذراء مريم وولد يسوع، فهو تجسد في يسوع.

- (إذا كان الرب قد نزل إلى الأرض ليدخل في بطن مريم ليكون منه جنينًا بقي تسعة أشهر وخرج مولودًا ملطخًا بالدماء متجسدًا في يسوع، ثم تربي وتعلم القراءة والكتابة والأدب، ثم كبر فعلم أصحابه الشريعة، ثم ثار عليه اليهود فهرب منهم كما جاء في كتابكم فطلبوه، ودلهم عليه أحد تلاميذه (يهودا الأسخريوطي) فوجدوه، وإلى خشبة الصلب دقوه، ثم بتاج الشوك توجوه، ثم من شراب الخل والمرّ أسقوه، ثم قتلوه، ثم دفنوه، ثم قام بعد ثلاثة أيام من قبره ليصعد إلى السماء، فقل لي بربك: لم هذه المعاناة وهذه المآسي؟!، وهل ترضى أن يكون لك رب كهذا يعامل معاملة المجرمين الخارجين عن القانون على أيدي اليهود؟!).

- لذلك حكمة تغيب عنك، إن كل ما أصابه تكفير عن خطايانا السابقة واللاحقة فلا نتعذب في الآخرة.

- هل أنت على ثقة بأنك لن تحاسب بذنوبك، وأنت ستدخل الجنة؟!.

- نعم، بعكس دينكم الذي لا يضمن لكم دخول الجنة، وإنما أنتم تحت المشيئة.

- فلماذا أنت هنا تعيش عيشة المحرومين وقد ضمنت الجنة؟!

- أنا هنا من أجل بقية الخلق الذين أذنبوا وابتعدوا عن الدين لكي أظهر تائبهم عندما يأتي إلي.

- هل عيسى هو الذي خلق الكون والمجموعات الشمسية وكل الأنبياء والبشر؟

- مع أبيه.

- إذا كان قد دفن ثلاثة أيام في قبره ميتاً فمن كان يدبر شؤون العالم في ذلك الوقت؟

- أبوه.

- إذا كنت تعتقد أن عيسى إله، لأنه ولد من غير أب فمن باب أولى أن يكون آدم (عليه السلام) إلهاً لأنه ولد من دون أب ولا أم؟.

- آدم ليس إلهاً، إنه مخلوق من طين.

- هل صلب المسيح على الصليب، وهل تؤمن بهذا؟

- نعم.

- هل قرأت ما قاله لوقا في سفر التثنية: (أن من يُصلب فهو ملعون)

فهل يعقل أن يكون عيسى الذي رضي بالصلب كان ملعوناً؟

- لم يقل ذلك أي نصراني.

- لقد قال شاؤول الذي تسمونه (بولس) في رسالته إلى أهالي

غلاطية: إن المسيح افتدانا من لعنة الشريعة إذ صار لعنة من أجلنا، لأنه قد

كُتِبَ (ملعون كل من علق على خشبة) أما عندنا فهو نبي الله الذي خلقه بكلمته، وبعثه رسولاً، ورفعته إليه عندما أراد اليهود صلبه، يقول الله تعالى في كتابنا الكريم القرآن: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا \* بَل رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (1).

- لقد جعلتني في حيرة.

- رأيت أننا نحب المسيح، وننزهه مما رمي به؟

- دعك من هذا وقل لي: الجنة عندنا ملكوت، ومتعنا معنوية وحياة مع الله، وعندكم: الجنة تكون أنواعاً من المتع الجسدية فلماذا؟!

- الجنة عندنا بها متع روحية ومتع جسدية، وليست متعاً جسدية فقط، ولهذا أنا أقول لك: إن الجنة عندنا أفضل من الملكوت عندكم لأنها تشمل ما عندكم في الملكوت من متع روحية وتزيد عليه بالمتع الجسدية.

- كلُّ له دينه الذي يتعبّد به ربه، ثم قطع الحوار وقام إلى زاويته متعبّداً.

تركته بعيد العصر هابطاً إلى وسط طرسوس، ثم ارتحلتُ منها بعد يومين من نزولي من الجبل إلى أضنة، ثم إلى قونية، ثم إلى اسكسهر، ثم إلى بورصة، ثم كوجايلي، ومنها إلى الأستانة حيث استمرت رحلتي عدة أشهر انتقل من بلدة إلى أخرى، ولم أجد في تلك البلاد يهودياً واحداً لأنهم يتخفون ويميلون إلى الوحدة، وعندما وصلت الأستانة

التي سماها أجدادي الفرس بهذا الاسم وتعني العتبة لأنها منفذ بين عالمين فجزء منها موجود في الشرق وجزء موجود في الغرب يفصل بينهما مضيق مائي ساحر يسمى البوسفور، وتتميز الأستانة عن غيرها من المدن التي زرتها بكثرة كنائسها ومعابدها التاريخية القديمة لكونها مهد حضارات اليونان والرومان.

وجدتها آية في الجمال إلا أنها غامضة على الزائر غير تلك المدن التي عرفت فلم يطل مقامي بها بعد أن شعرت بتراجع رغبتني في التجوال، وغمرني حنين إلى أسرتي وتلاميذي في بغداد فعدت أدراجي بعد أسابيع ثلاثة قضيتها في تلك المدينة متجولاً دون أن آتي على كثير من معالمها، أو أفصح أسرارها، فقد بدت لي مدينة مغلقة على ذاتها لا تسمح للغرباء بشيء من أسرارها ومفاتها إلا ما ظهر منها رغم تاريخها الطويل.



عدت إلى بغداد فاستقبلني أهلي وأصحابي وتلاميذي خير استقبال، وبدت لي أم الحسين كأحلى مما تركتها عليه فأطلت البقاء معها في الدار أحكي لها عن متاعبي وما رأيت، وهي تحكي لي عن شوقها وما أصابها من يأس حول عودتي، وبكت على صدري مراراً تشكو عذاب الفراق، وتتمنى أن أكفَّ عن الأسفار وأبقى إلى جانبها مع أولادي فالعمر قصير حسب تعبيرها، وأيام السعادة معدودة، ومن المؤلم أن أخرج من سفر إلى سفر وهي تقضي أيامها في الانتظار، وعدتها أن لا أعود إلى سفر، ولن أبرح بغداد فأسعدّها ما سمعت، وجعلت شغلها الشاغل إرضائي بكل ما تستطيع، عدت إلى سالف

عهدي في التعامل مع الأمور في بغداد، فقصدت جامع المنصور بعد أسابيع من عودتي، وقررت أن يكون موضع دروسي حيث أستقبل فيه الأتباع والمريدين، بعد حين ضاق الأعداء بي والجامع بأتباعي فقررت الخروج بهم إلى حدائق في أطراف المدينة، وبينما أنا على تلك الحال وصلني رسول الخليفة المقتدر بالله (جعفر بن أحمد المعتضد بالله) يطلب حضوري لقصر الخلافة بسبب علةٍ عرضت للخليفة في جوفه فدله حاجبه (نصر القشوري) على شخصي، ووصف له صلاحه وتقواي وعلمي، واستأذنه في إدخاله إليه فأذن له، وجئت إليه فوجدت رجلاً (رُبعة، مليح الوجه، أبيض بحمرة)، فوضعت يدي على الموضع الذي كانت العلة فيه في أعلى البطن، وقرأت عليه آيات الشفاء فزالت العلة، وبعد حين أصاب والدته الخليفة السيدة (شغب) مثل تلك العلة فاستدعاني الوزير نصر فعالجتها فزال ما وجدته فأعجبت بمعرفتي وأصبحت بعد ذلك تدعوني إلى دارها، ويقوم الخدم والحاشية على خدمتي، ثم إنها جعلت لي جناحاً في القصر وطلبت مني إحضار أهلي ففعلت فعاشوا معها ما يزيد على عامين، وتركنا منزلنا المتواضع في الكرخ إلى حيث البسط والمفارش والطنافس من الدمقس والحريير والصوف الناعم، ونامت أم الحسين على فرش وثيرة لم تعرفها من قبل، وأمر الخليفة لي بعشرة دنانير من الذهب كعطاء شهري، ثم إن الخليفة أمر لي بجارية بعد أن أمرت السيدة لزوجتي بخادمة، وأصبح الخليفة يدعوني إلى مجلسه، ويستشيرني في بعض أمور الدولة فغضب الوزراء من آرائه لكن الخليفة المقتدر كان يدرك مدى صدقي وحرصه على مصلحة الناس، وتقلبنا في النعيم إلى أن استطاع الحساد إخراج أهلي ليعودوا إلى بيتهم القديم، وبقيت أنا أتردد على أم الخليفة كلما فرغت من عملي في الدعوة فأجدها تقضي في أمور

الدولة حتى عُرفت بقاضي القضاة بعد أن كانت جارية للمعتضد فلما تزوجها ارتقت وأصبحت زوجة الخليفة، ثم أم الخليفة المقتدر بالله، وقد أقصت العديد من نساء الخليفة المعتضد ولقين حتفهن بالسم، خصوصاً من تلد منهن ذكراً كـ (قطر الندى بنت أحمد بن طولون، ودريرة التي استأثرت ردحاً من الزمن بقلب الخليفة المعتضد فأنشأ لها حمام سباحة، وحين ماتت مسمومة بكأها الخليفة شعراً، وتوفيت (جيجك) الزوجة التركية للخليفة وأم ابنه المكتفي بالله بالطريقة نفسها)، وبهذا استأثرت السيدة شغب بقصر الخلافة وتنامى دورها مع خلافة ابنها المقتدر بالله حتى أصبح لقب السيدة خاصاً بها، وكنت إذا حضرتُ حظيتُ باهتمامها، فرهب مني الوزراء، وأصبحت لي مكانة تفوق أقربهم إلى الخليفة، أما السيدة شغب بسلطانها وجلالها ونفوذها فقد أصبحت من أتباعي المخلصين والمدافعين عني عندما يشي وزير بي إلى الخليفة مما جعل كثيراً من الوزراء والقواد والأمراء يمشون في موكبي، ويحفون بي في مجالسي، وبعضهم أخذ منهجي إما عن اقتناع بي، وإما افتتانه بشخصيتي التي يصفونها بالساحرة، وإما تزلماً وتقرباً لأن الأسرة الحاكمة ترعاني وتجلني، وتؤمن بي وتقدرني بعد أن امتلأ قصر الخلافة بالحديث عن كراماتي، وما تصنعه يداي من عجائب وغرائب تكاد ترتفع فوق الكرامات والآيات، وأسرف الناس كعادتهم في هذا الأمر، وأضافوا إليه وزادوا فيه حتى غدوت أكثر من أسطورة، وأكبر من وليّ في أفق بغداد وسماء العراق، وملأت الهمسات الملونة أندية بغداد ومساجدها ما جعل خصومي يبلغون ذروة غضبهم بعد أن رأوني أرتفع شاهقاً فوق هاماتهم، فراحوا يملأون الدنيا صياحاً غاضباً حول الدعوي الساحر الدجال حيناً، وحيناً تتناول الصيحات المرعدة عقيدتي الإيمانية وتصفني بالكفر والفسوق والاتحاد والحلول، لكنني بقيت في

آفاقي بعيداً عن هذا الدويّ، لقد ملكتُ رسالتي الإصلاحية كل تفكيري، وملك حبي لربي كل وجداني، وأنا أعلم أن مقامي في قصر الخليفة لن يطول فذهبت أجاهد بصوت مسموع، وحماسٍ ملتهبٍ، وعزم لا يلين، ولكن موقف بعض أحبابي وأساتذتي وتلاميذي من الصوفية خذلني، وخاصة من أبناء مدرسة الجنيد الذين حاربوا رسالتي مما سبب لي بعض الأسى والحزن حيث بارزونني في منهجي، وسلقوني بألسنة حداد في حبي وإيماني، وهذا الموقف العدائي من الإمام الجنيد ومدرسته قد أرقني وأهمني أكثر من مكائد الوزراء وأصحاب المصالح الدنيوية الذين أخرجوني من القصر فعدت مع أسرتي إلى بيتي في الكرخ.



كان الخليفة نهماً باللعب والجواري، سمحاً، متلاًفاً للأموال، مَحَق ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى من المال، ولا يلتفت إلى أعباء الأمور، فدخل عليه الداخِل بالكذب، ووهن دوره مع أنه كان جيد العقل، صحيح الرأي، ولكنه كان مؤثراً للشهوات؛ وقد سمعت الوزير (علي بن عيسى) يقول: (ما هو إلا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام فيكون في أصالة الرأي كالمأمون والمعتضد) لكن توليه الخلافة صغيراً، ونفوذ أمه وأصحاب الدنيا من الوزراء والجواري ومحاولات المناوئين له مراراً نزع الخلافة منه تارة لابن عمه (عبد الله بن المعتز) وأخرى لأخيه محمد ثم القاهر، وتكالب الأعداء عليه، وتربصهم به وبملكه، جعله في حالة ضعف دائم.

قال محمد بن يوسف القاضي: لما تم أمر المقتدر استصباه الوزير العباس بن الحسن فخاض الناس في صغره، فعمل الوزير على خلعه وإقامة أخيه (محمد)، ثم إن محمداً وصاحب الشرطة تنازعا في مجلس الوزير، فاشتط صاحب الشرطة واغتاط محمد كثيراً ففُلج لوقته ومات بعد أيام.

وكان أكثر أعداء الخليفة ممن اتفقوا على الفتك به (محمد بن داود بن الجراح، وأبو المثنى أحمد بن يعقوب القاضي، والحسين بن حمدان) حيث خططوا لخلافة عبد الله بن المعتز، وفي العشرين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومئتين دُبّر أمر إطاحة الخليفة، فشد الحسين بن حمدان على الوزير (العباس بن الحسن) بعد أن غير رأيه في نزع الخلافة عن المقتدر وهو من رعاه صغيراً فقتله، فأنكر (فاتك) حاجب الوزير فعُل ابن حمدان فعطف عليه فقتله، وذهب إلى المقتدر وهو يلعب بالصوالجة فسمع الضجة فدخل الدار، فرد ابن حمدان إلى المُخَرَّم فنزل بدار سليمان بن وهب، وأتى ابن المعتز، وحضر الأمراء والقضاة سوى حاشية المقتدر ووزيره علي بن الفرات، وبايعوا عبد الله ابن المعتز، ولقبوه الغالب بالله فوزر ابن الجراح ونفذت الكتب، وبعثوا إلى المقتدر ليتحول من دار الخلافة فاستجاب للأمر، ولم يبق معه سوى (هارون بن غريب - خاله، ومؤنس الخازن، وباكر بن حمدان) وطائفة قليلة، فأحاطوا بالدار واقتتلوا فرجحت كفة المقتدر بالله، ومن ثم ذهب ابن حمدان إلى الموصل، واستظهر خواص المقتدر، وخارت قوى ابن المعتز وأصحابه، وانهزموا نحو سامراء، ثم نزل ابن المعتز عن فرسه، وأغمد سيفه، واختفى وزيره وقاضيه، ونهبت دورهما، وعندما ظفر بهم الخليفة بمؤازرة وزيره (أبو الحسن علي بن الفرات) أراد ابن المعتز أن يتحول إلى سامراء لينزلها فلم يتبعه أحد من الأمراء، فدخل دار ابن الجصاص فاستجار به فأجاره، ووقع النهب في المدينة، واختبئ الناس، وبعث المقتدر إلى أصحاب ابن المعتز فقبض عليهم وقتل أكثرهم، وأرسل إلى دار ابن الجصاص فتسلمها، وأحضر ابن المعتز وابن الجصاص فصادر ابن الجصاص بمال جزيل جداً، نحو ستة عشر ألف

ألف درهم ثم أطلقه، واعتقل ابن المعتز، فلما دخلت في ربيع الآخر ليلتان ظهر للناس موته، وأُخرجت جثته فسُلمت إلى أهله ودفن، ثم صُفح الخليفة المقتدر بالله عن بقية من سعى في هذه الفتنة حتى لا تفسد نيات الناس، وكان عبد الله بن المعتز أسمر اللون مدور الوجه يخضب بالسواد، وقد عاش خمسين سنة، وهو شاعر رقيق، وحكيم بليغ، روي عنه في الحكمة أقوال منها:

- أنفاس الحي خطايا.
- أهل الدنيا ركب يُسار بهم وهم نيام.
- ربما أورد الطمع ولم يصدر، ربما شَرِقَ شارب الماء قبل ريه.
- من تجاوز الكفاف لم يُغنه الإكثار.
- كلما عظم قدر المُتنافس فيه عظمت الفجيرة به.
- من ارتحله الحرصُ أضناه الطلب.
- الحرص ينقص من قدر الإنسان ولا يزيد في حظه شيئاً.
- أشقى الناس أقربهم من السلطان، كما أن أقرب الأشياء إلى النار أقربها حريقاً.
- من شارك السلطان في عزِّ الدنيا شاركه في ذلِّ الآخرة.
- يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك.
- الفرصة سريعة الفوت بعيدة العود.
- الأسرار إذا كثرت خزائنها ازدادت ضياعاً.
- الجزع أتعب من الصبر.

- لا تشن وجه العفو بالتقريع .  
- تركة الميت عزّ للورثة وذلّ له .



ساس الوزير: علي ابن الفرات الأمور بعد توليه الوزارة للمرة الثانية وتمكن منها، وانصلح أمر الرعية، والتقى الحسين بن حمدان وأخوه أبو الهيجاء عبد الله، فانكسر أبو الهيجاء، وقدم أخوهما إبراهيم فأصلح حال الحسين، وكتب له الخليفة أماناً، وطلبه القدوم إليه فقلّده ولاية قُمّ وقاشان من بلاد الفرس، وظهرت على الناس ثلاثة كواكب مذنبه، أحدها في رمضان، واثنان في ذي القعدة، تبقى أياماً ثم تضمحل، ومعها وقع طاعون بأرض فارس مات فيه سبعة آلاف إنسان فأصاب الناس الهلع، وقدم صاحب إفريقية زيادة الله الأغلب إلى الخليفة في بغداد يطلب منه، وأخذ الولاية منه أبو عبد الله الشيعي من دعاة الفاطميين، وبويع المهدي بالمغرب بعد ذلك، وظهر أمره وعدل، وتحبب إلى الرعية أولاً، ووقع بينه وبين معارضيه قتال فعظم الخطب، وقُتِل خلق من الطرفين حتى ظفر بهم المهدي وقتلهم وتمكن حكمه فبنى المهديّة، وعاد الحسين بن حمدان من قُمّ فولاه الخليفة ديار بكر.

وفي سنة تسع وتسعين ومئتين أمسك الخليفة بالوزير علي بن الفرات بتهمة مكاتبته الأعراب أن يكبسوا بغداد فعزله، وأمر بنهب داره فنهبت أقبح نهب، ووزر أبو علي الخاقاني بدلاً عنه، ووردت هدايا من مصر منها: خمسمائة ألف دينار، وضلع آدمي عرضه شبر وطوله أربعة عشر شبراً، وتيس له بز يدّر اللبن، وقدمت هدايا صاحب ما وراء نهر السير داريا، وهدايا يوسف بن أبي الساج والي أذربيجان وأرمينية منها:

بساط رومي طوله سبعون ذراعاً في ستين، نسجه الصناع في عشر سنين، وفي سنة ثلاثمائة عظم الوباء بالعراق ومات خلق كثير، ووزر الخليفة علي بن عيسى بن الجراح، وولي القضاء أبو عمر القاضي، وفي هذا العام تم القبض عليّ من قبل حرس الخلافة، وضربتُ في وسط بغداد بأمر من القاضي أبو عمر، ونودي عليّ أمام الناس: هذا أحد دعاة القرامطة، ثم سجنْتُ بعد ذلك.



## «شاهد»

حدّث طاهر بن أحمد التستري وهو معاصر للحلاج قال: تعجبت من أمر الحلاج فلم أزل أتتبع وأطلب الحيل وأتعلّم النيرنجات لأقف على ما هو عليه، فدخلت يوماً من الأيام وسلمت عليه وجلست ساعة، ثم قال لي: يا طاهر لا تتعنّ فإنّ الذي تراه وتسمعه من فعل الأشخاص لا من فعلي، لا تظنّ أنه كرامة، أو شعوذة فصحّ عندي أنه كما قال.



## 9

قدم لزيارتي في منزلي ذات مساء (إبراهيم بن فاتك) فرآني قائمًا على رأسي وأنا أبتهل إلى ربي فخاف، وأراد العودة من حيث أتى فناديته، ودار بيننا حوار عما رأى.

- كيف تعلمت هذا وأين؟

- وجدتهم في الهند يمارسون هذا النوع من الرياضة فتعلمتها.

- ما فائدتها وهي تجعلك في منظر مخيف؟!.

- إنها تحرك الدم في الدماغ، وتنشط الفهم وتقوي الذاكرة.

وسلك بنا الحديث مسالك شتى عن التصوف وأحوال الدولة، وأكلنا وشربنا حتى استأذن في الخروج.

ثم إنني اشتقت إلى مناكفة شيعي الجنيد الذي يضيق ذرعًا برؤيتي فذهبت إليه وأنا أقول:

يا مالك الدنيا ومالك ديني كم ينشرني (الهو) وكم يطويني

فتبعني الناس في الطريق فكنت أذكر الله وجسمي يكبر حتى سددت منافذ الطريق، وما زال تجار بغداد يريدون سجنني لأنني أشغلتهم عن تجارتهم وأشغلت الناس فشكوني إلى الجنيد بصفته شيعي، وله اليد الطولى والمكانة المرموقة عند الخلفاء فأدخلوني السجن بعد المغرب

فوجدت فيه خلقاً كثيراً فوعظتهم بقولي: (يا معشر المسلمين، ما حبسكم إلا ذنوبكم وغفلة قلوبكم عن محبوبكم، وقد رغبتم في هذه الدنيا الدنية عن سيدكم ومطلوبكم، فلو رجعتم بقلوبكم إليه لبكيتم بعيونكم عليه، وكان جعل لكم من أمركم فرجاً ومخرجاً).

ثم أنشدتهم من أشعاري وابتهالاتي وأنا أبكي حتى وقت العشاء الأخير فقمتم وأذنت وصليت بهم ثم جلست أذكر الله حتى وقت صلاة الصبح فقمتم وأذنت ثم صليت بهم الصبح، وبعد الصلاة خطت خطأ على هيئة مركب وقلت للسجناء: من أراد الخروج فليجلس معنا فقام قوم وجلسوا أما آخرون فقد سخروا مني، قلت لمن معي: حركوا مركبكم بذكر الله صادقين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فتحرك المركب فإذا هو وسط النهر فنزلت أمشي على صفحة الماء والمركب يتبعني حتى بلغت الشاطئ فقلت لمن فيه: سيروا إلى حال سبيلكم، ثم إني أتيت باب بغداد فأقبل إلي الناس فقلت لهم: (ظننتم أنكم فرقتم بيني وبين حبيبي، وزعمتم أنه قد فاتني منه نصيبي، أما علمتم أنه معي في حضرتي ومغيبي! إن حضرت فهو قريبي، وإن غبت فهو حبيبي، وإن دعوته فهو مجيبي، وإن مرضت فهو معيدي).

ثم إنهم أعادوني للسجن بعد أشهر، وبينما أنا أحدث زائري (محمد بن خفيف) دخل أمر السجن بيكي بعد أن وشى به أحدهم إلى رئيس الشرطة بأنه يأخذ رشوة فجثوث على ركبتي ورفعت يداي وقلت: يا الله، ثم طأطأت رأسي حتى لامست خدي الأرض ودموعي تبل الثرى، وبقيت على هذه الحال حتى أتى أمر السجن يصيح: قد غفي عني، فنظرت فإذا قطعة قماش نظيفة في آخر الصفة تبعد عني ما يزيد على خمسة أمتار فمددت يدي فجاءت إلي فمسحت بها وجهي.

ثم إن الخليفة أحضر بعض علماء بغداد لمناظرتي فطلبتُ منه أن يأمر بحفر حفرة ويملاها فحمًا ونازًا، ثم طلبت إحضار هاون من نحاس زنته أربعون رطلًا بغداديًا فوضعتَه وسط النار فلما أصبح كالجمرة جلست عليه ووضعت أقدامي في وسط النار، ثم طلبتُ ممن يرغب مناظرتي أن يجلس إلى جانبي في النار فلم يجرؤ أحد منهم، بل إنهم تسابقوا للفرار فقلت لهم: ويلكم تفرون من نار الدنيا ولا تفرون من نار الآخرة وهي أشد، وسيدخلها من أكل الحرام وأموال الأيتام وناق في الصلاة والصيام ثم قلت: الله أكبر فانطفت النار وبينت للخليفة حقيقة مقالي وخرجت، إلا أن أولئك العلماء لم يتوقفوا عن الزعم بكفري، والسعي إلى إراقة دمي فطلبوا المناظرة عند ابن هارون المديني فلما جئتهم أدركت غدرهم فقلت:

يا غافلًا لجهالة شأني هلا عرفت حقيقتي وبياني

ثم إن ابن هارون قال لي: ابني مريض فادع له، قلت: قد شُفي فدخل علينا الابن وما به من بأس فمد لي ابن هارون كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار لأصرفها فيما أريد فرميتها في النهر فندم على إعطائي فأرسلت له رجلًا بعد ساعة ليعيد إليه صرته كاملة على أن يقول له: من أطاع الله أطاعه البر والبحر.

وكنْتُ في أحد الأيام أسير في وسط بغداد فالتفت حولي الناس يقولون يا أبا عبد الله بصرنا، قلت: كيف أبصركم وأنتم تعبدون هذه؟! وأشرت إلى الأرض فغضبوا وشتمونني فناديت بمسحات فحفرت الأرض وأخرجت لهم كيسًا من ذهب وقلت لهم: هذا ما تعبدون، تبيعون دينكم بدنياكم، ولم تعبدوا الله حق عبادته، ولما سجنْتُ في دار الوزير حامد بن العباس جاءني الغلام المسؤول عن خدمتي فوجد

جسدي قد ملأ الغرفة فولى هاربًا، وأصابته حمى من الخوف كادت تهلكه.

وتوالت النكبات على الخليفة بعد أن سلّم أمور الدولة للوزراء الذين تديرهم والدته وتفرغ للهو والجواري، خاصة جاريته (ثمل) أو شمال التي سميت (بالقهرمانة وتكنى بأم موسى) لكونها وزيرة السيدة شغب، التي هام بها حبًا وشغلته عن أمور الدولة فأخذت أمه زمام الأمور.

وفي سنة إحدى وثلاثمائة للهجرة أقبل ابن المهدي صاحب المغرب في أربعين ألفًا من الجند برًا وبحرًا ليملك مصر، ووقع القتال غير مرة، واستولى العبيدي على الإسكندرية، ثم رجع إلى برقة، وفي العام ذاته مات الراسبي أمير فارس فخلف ألف فرس، وألف جمل، وألف ألف دينار.

وفي سنة اثنتين وثلاثمائة للهجرة أقبل العبيدي، فالتقاه جيش الخليفة فانكسر العبيدي وقتل قائد جيشه، وفي نفس العام أنفق الخليفة على ختان أولاده الخمسة ستمائة ألف دينار، وقُدأ أبا الهيجاء بن حمدان أمر الجزيرة، وأخذت طيء ركب العراق، وهلك الخلق جوعًا وعطشًا.

وكان أكثر ما يعيظني رجال يظهرون في زي الوعاظ والصالحين فإذا خلوا بامرأة زنوا بها، أو زجاجة خمر كرعوها، وإذا وجدوا طريقًا إلى مال سرقوه، ولم أر على الناس أشد من هؤلاء وأخطر، وقد كنت ذات يوم أسير في زقاق في بغداد فوجدت أحد الذين يقتعدون الصف الأول في مسجد المنصور يستمعون المواعظ ممن تظهر عليه علامات الصلاح يترنح مخمورًا قد بلغت به الخمر مبلغًا فسألته:

لَمْ يَا هَذَا تَفْعَلْ بِنَفْسِكَ هَذَا الْفِعْلَ؟! فَقَالَ: إِنِّي أَحْمَلُ هَمَّ الْعَالَمِ  
ولهذا أشرب حتى أثمل وأتخفف فأنشغل بهمي، ضحكت من رده  
العجيب بينما انشغل هو بحمل رأسه المثقل وجسده المتعب ودلف إلى  
دار صغيرة.

في سنة ثلاث وثلاثمائة للهجرة راسل الوزير ابن الجراح القرامطة  
وأطلق لهم وتألفهم، وكان جيش الخلافة مشغولاً مع مؤنس خادم  
الخليفة بحرب البربر، وقد عرف عن مؤنس شدته وحنكته لقربه من  
الخلفاء وخدمتهم منذ عهد المعتضد، ونزع الطاعة الحسين بن حمدان  
فسار لحربه راتق خادم السيدة شغب، فكسره ابن حمدان، ثم أقبل إليه  
مؤنس فالتقى الحسين فأسره، وأرسله إلى بغداد أسيراً على جمل.



قلتُ للناس ذات ظهر في وسط بغداد عندما سمعتُ المؤذن يؤذن  
على رأس المئذنة: كذبت، فأقبل الناس يشتمون ويكفرون فقلت لهم:  
لست أكذبُ المقال بل أكذبُ الحال فلو صدق هذا المؤذن في قوله  
(الله أكبر) لتفتت من تحته الحجارة وانهارت به هذه المئذنة، لكنهم  
لم يفهموا تبريري فأرادوا سجنني فذهبت في حالي فلحقوا بي فدخلت  
مدرسة لأتوارى عنهم فغلّقوا علي الأبواب وذهبوا للوشاية بي عند  
وزراء الخليفة فخرجت من المدرسة إلى بيتي فلحقوا بي يريدون بي  
شراً فتعاطم جسدي حتى سد منافذ البيت فخافوا ورجعوا، ثم عادوا  
إلي في الصباح فوجدوني في حالي الطبيعية فأخذوني للسجن وعندما  
رجع «محمد بن خفيف» من مكة ودخل بغداد أراد أن يقابلني بعدما منع  
الحراس عني مقابلة الناس فطلب من السجان أن يراني بعد ما أخبروه

أني في السجن فلما دخل وجد دارًا حسنة ومجلسًا وفرشًا وشابًا قائمًا كالخادم فسأله محمد:

- أين الشيخ؟! فأجاب

- مشغول .. دخل إلى سجن اللصوص يعظهم.

- وطعامه، من أين يأكل؟ فأجاب الشاب:

- إن مائدة تحضر إليه كل يوم عليها ألوان الطعام لا يُعرف من أين فينقرها بإصبعه ولا يأكل زهدًا وتعذيبًا لروحه، فلما خرجتُ عليه كنتُ حسن الوجه، لطيف الهيئة، لي هيبة ووقار فسلم عليّ وسألني: كيف حالك؟!

- الحمد لله.

فسألته عن مشايخه فأخبرني عنهم، وبيّن أنهم في خلاف واختلاف حول أمري، فأوصيته بأن يخبر العباس بن عطاء بأن يحتفظ بالرقاع التي لديه ولا يعطيها لأحد فقد تُطلب وتُتلف، وفيها جل ما كتبتة في الطواسين والشعر.

وفي سنة أربع وثلاثمائة للهجرة وقع الخوف في بغداد من حيوان يقال له (الزيزب) ذكر الناس أنهم يرونه بالليل من سطوح منازلهم يتجول في أزقة المدينة، وأنه يأكل الأطفال ويقطع ثدي المرأة فكانوا يتحارسون ويضربون بالطاسات ليهرب، واتخذ الناس لأطفالهم مكامن يُخبئونهم فيها بعد الغروب، وفيها عزل الخليفة المقتدر وزيره «علي بن عيسى ابن الجراح»، وخرج بأذربيجان يوسف بن أبي الساج فأسره مؤنس بعد حروب.

وفي سنة خمس وثلاثمئة للهجرة قدمت رسل طاغية الروم يطلب الهدنة، فزُينت دور الخلافة، وعرض الخليفة المقتدر بالله جيوشه مدججة بالسلح، فكانوا مائة وستين ألفاً، وكان الخدام سبعة آلاف، والحجاب سبعمائة، والستور ثمانية وثلاثين ألف ستر، ومائة أسد مسلسلة، وفي الدهاليز عشرة آلاف جوشن مذهبة من دروع الصدر.

ازدادت ملاحقة الشرطة لي في بغداد سنة ست وثلاثمئة للهجرة، وللحلاجي (دباس البصري)، بدافع من الكراهية التي أضمرها عدوي الوزير (حامد بن عباس) صاحب المزارع الكبيرة في واسط، وكان سبب العداوة خوف الوزير من مواعظي ومطالباتي للخليفة بالعدل أن يفقد حظوته في الدولة وثروته التي جمعها من الضرائب وهبات الخليفة وبيت المال.

دخلت بغداد في حركة متعاقبة على المسرح السياسي، حيث نُقلت السلطة إلى وزير جديد هو (علي ابن عيسى القنائي) الذي حاول أن يجهض قضيتي، لكنني بقيتُ خلال السنين الماضية أسير القصر تحت نيران أصدقائي وأعدائي المتصالبة، وزُج بي في السجن مرات عديدة خوفاً من أفكارني فأخذوني أخيراً وقت العتمة فقيدونني، ووضعوا السلاسل في عنقي ورجلي ويدي وزجوا بي في بيت ضيق، فقلت للسجان لمَ هذا؟! قال هم أمروني فهزرت جسمي فتطير الحديد، ثم نظرت إلى جدار الغرفة فانفرج باب إلى فناء واسع فبهت السجان وكاد يهرب فقلت له: الآن افعل ما أمروك به فأعاد السلاسل، وبقيت سنوات أُنقل من سجن إلى سجن.

وفي تلك السنة فُحج مارستان أم المقتدر، وأنفقت عليه سبعمائة

ألف دينار، وذُبح الحسين بن حمدان في الحبس، وأُطلق أخوه أبو الهيجاء، وكان قد أعيد علي بن الفرات إلى الوزارة قبل حين فقبض عليه بأمر من الخليفة حيث وزر (حامد بن العباس) بدلاً عنه فقدم من واسط وخلفه أربعمائة مملوك في السلاح، وتولى نظر مصر والشام المادرائي، وقرّر عليه خراجهما في السنة سوى رزق الجند ثلاثة آلاف ألف دينار، واستقلت بالأمر والنهي السيدة أم المقتدر، وأمرت (القهرمانه أم موسى) أن تجلس بدار العدل وتنظر في القضايا، فكانت ثمل تجلس ويحضر القضاة والأعيان، وتوقع ثمل على المراسم، وبذلك كانت أول قاضية عرفها الناس.

وفي سنة سبع وثلاثمائة للهجرة ولى الخليفة المقتدر بالله (نازوك) إمرة دمشق، ودخل القرامطة البصرة، فقتلوا وسبوا، واحتل القائم العبيدي الإسكندرية ثانية، لكنه مرض ووقع الوباء في جنده.

وتجمع في سنة ثمان وثلاثمائة للهجرة من أتباعي ببغداد عشرة آلاف لإخراجي من السجن، وفتحوا السجن، وقاتلوا الوزير وجنوده من الشرطة، ودام القتال أياماً، وقُتل عدد من الناس، ونهبت الأموال، واختلت أحوال الخلافة جدّاً، لكن ذلك زاد من غضب الوزير حامد بن العباس، وتسبب في تشديد الحراسة علي في السجن.

اشتد البلاء بالبربر، وكادوا أن يملكو إقليم مصر فضح الخلق بالبكاء، ثم هزمهم المسلمون بعد أن سار إليهم قائد الخليفة في طرسوس بحرّاً فاستعاد الإسكندرية منهم.

وأخذ سيلٌ من الرسائل والكتب يتدفق من الأقاليم المأجورة لمهاجمتي! وابتدأ الدسّاسون يحرفون كَلِمَاتِي عن مواضعها، وينسبون

إلي ما لم أقله، بل أخذوا يجمعون ويدربون شهود الزور، الذين سَيَقُولُونَ الْإِفْكَ، ويشهدون عليّ عند محاكمتي التي دبر لها الوزير (حامد بن العباس)، وساهم في المعركة كثيرٌ من رجال الدين من جميع الطوائف بما فيهم المعتزلة فرَوَّجوا في القصر ردًّا على كراماتي رسالة للأوارجي تصف شعوذتي وحيلي، واشترك في المعركة ضدي مزيجٌ عجيبٌ من المرتشين والقوادين والزنادقة ومُسْتَعْلِي النفوذ، وأخذت آفاق السياسة العامة في بغداد تضطرب، وأخذت أحزابها تتصارع وتتقاتل، وعلى قمة هذا الصراع الإعداد لمحاكمتي.



إشارة (د)

ليس على وجه الأرض كفر إلا وتحتة إيمان، ولا طاعة إلا وتحتها  
معصية أعظم منها.

الحلاج



## 10

تخلّيتَ يا أبا سليمان عن منهج الصوفية القائم على الزهد والاعتزال وعدم مواجهة الظلم بحجتهم التي لم تقبلها حيث يرون (أن كل ما يحدث للخلق مقدر لا يمكن دفعه أو تغييره) فخالفتهم وناصرت المظلومين والضعفاء، وعبرت عن مشاعر التعاطف مع الزنج والعلويين بين فترة وأخرى، واعترضت على ممارسة الحكام والوزراء الذين ما رسوا الظلم والقمع وعاشوا في النعيم فعرفك الناس بناصر المستضعفين وهو ما أغاض الصوفيين في زمانك، ولم يقف فعلك على هذا بل تخلّيت عن المظاهر الشكلية للصوفية فتركت الخرقه ولباس التصوف، وفي بدايتك لبست (المسوح) ثياب الرهبان، وفي مرات أخرى لبست ثياب العمال، وفي بعض أحوالك لبست «الشاشية» القبعة الحمراء لأن لباس التصوف الخشن لا يتفق مع رؤيتك للتصوف حيث هو عندك يتجاوز الشكل والهيئة الظاهرة إلى الممارسة الفعلية (المجاهدة للنفس والظلم في سبيل معرفة الله والاتصال الدائم به).

وعندما وجد الوزير (حامد بن العباس) رسالتك إلى قادة العلويين التي قلت فيها:

(وقد آن الآن للدولة الغراء الفاطمية الزهراء، المحفوفة بأهل الأرض والسماء، وأذن للفئة الطاهرة مع قوة ضعفها في الخروج إلى

خراسان ليكشف الحق قناعه، ويسيطر العدل باعه). سجنك وخطط لقتلك حتى تم له ما أراد.

وأفنيّت جسدك يا مولاي في جهاد الثغور في جبال طوروس حيث بقيت زمناً تتنقل بين قلاع الحراسة تصد مع الجند اعتداء الروم، ولك في جهاد النفس مواقف ودروس لم يبلغها سواك حين بقيت في مكة عامّاً في صحن المسجد تحت الشمس والمطر لا تبرح إلا لطواف أو صلاة أو طهارة، تكتفي بقضيمات من خبز وشربة ماء في اليوم واللييلة حتى بلغت حدّاً لا يطيقه غيرك من العزلة الخالصة حين لا تحدّث أحدّاً، ولا تطلب طلباً، ولا تسمع لأحد إلا لمناجاتك، ثم خرجت إلى الفيافي والوهاد متأملاً لم تُسلم نفسك لشيخ طريقة، وإنما صنعت طريقتك لنفسك تصوم فلا تظطر، وتصلي فلا تتوقف، وتقرأ القرآن حتى تختمه في ركعة أو ركعتين، تهرم في المصابرة حتى لا يبقى إلا عظامك البارزة، وتتعمق بالنعيم حتى تحمّر خدودك الفارسية، تأنس بك المخلوقات في الفلوات، ويرتعد منك مشائخ الطرق في الحلقات، تفتتح أمام خطواتك الأنوار، وتتسابق إلى يدك الكرامات إلى أن بذلت دمك وروحك في نهاية المطاف لأنك أردت أن يكون للمعرفة الحقيقية وجود فكانت قربان الكلمة المسكوت عنها، سجنوك في الزنازن، وقيدوا جسدك بالحديد، لكنهم لم يستطيعوا سجن روحك، ولم تُرضِ الفلسفة التي عبّرت عنها بالممارسة الفقيه (محمد بن داود) قاضي بغداد فاتهمك بالزندقة، وجرت محاكمتك فوصفوك بأنك حلولي تنادي بالحلول، وتتخذ الحب وصولاً لغايتك، وقالوا: إنك اتحادي تحاول أن تتحد بموجدك في تجربة مهمة غامضة حتى أصبحت تقول دعاوى عريضة: (أنا عوضاً عن هو) ! تأليهاً لنفسك، ومجتيبى تجد في ذاتك حقيقة صورة الله.

تخاصمت مع كثيرين من معاصريك، ولم تتخذ التقيّة منهجًا لك بل تكلمت بكلّ جرأة، وعانيت ما لم يعاناه أحد من المتصوفة فكان ذلك لك وحدك!.

- يا مولاي: أنكر خصومك تصوفك، واتهموك بأشع التهم فقال بعضهم: جيء بك إلى مجلس الوزير فناظرك أبو الحسن (علي بن عيسى)، فإذا أنت لا تقرّ القرآن، ولا تعرف في الحديث، ولا في الفقه، ولا في اللغة، ولا في الأخبار، ولا في الشعر شيئًا!

ووجدوا لك رفاعًا تدعو فيها الناس إلى الضلالة والجهالة بأنواع من الرموز، كقولك في مكاتباتك كثيرًا (تبارك ذو النور الشعشعاني).

فقال لك الوزير تعلّمك الطهور والفروض أجدى عليك من رسائل لا تدري ما تقول فيها، وما أحوجك إلى الأدب.

وأشاع عنك خصومك أنك صاحب حيلة، من ذلك ما رواه الخطيب البغدادي (أنك بعثت أحد أصحابك إلى بلاد الجبل على أن يظهر التنسك والعبادة حتى يثق به الناس ثم يتعامى، وبعد ذلك يظهر عدم القدرة على المشي، ويشر بقدم ولي صالح يشفيه مما به، فمكث عامين على الصلاح والتقوى حتى أحبه الناس ووثقوا به، ثم أظهر إصابته بالعمى فقاده الناس، ثم أظهر عدم قدرته على المشي فحملوه وذهبوا يطلبون له العلاج فقال لهم: لا ينفعني شيء مما تفعلون، ثم يروي لهم بعد أيام رؤيته للرسول ﷺ يقول له: إن شفائك على يد القطب، وسيقدم عليك في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني، وصفته كذا وكذا بصفاتك، وبقي في المسجد يبشر بك حتى أتيت فمسحت على قدميه فقام، ونفتت في عينيه فأبصر، فلما رأى ذلك القوم قدموا لك المال أجرًا فرفضته، لكنك أوصيتهم أن يدفعوه إلى صاحبك الذي نذر

أن يخرج للجهاد في طرسوس بعد شفائه ففعلوا، وكان يستزيدهم حتى جمع مالا كثيرا فلحق بك وتقاسمتما المال.

وروى أحد أهل الأهواز أنه أراد اختبارك فجاءك يريد سمكا طازجا فدخلت منزلك وخرجت بسمكة تضرب وعلى قدميك آثار الطين فقلت له: أمرني الله أن آتي البطائح لأجلب لك هذه السمكة فخضت الأهواز وهذا الطين منها فطلب منك أن يدخل دارك ليقوى يقينه فأذنت له، فدار في البيت يبحث عن منفذ فلم يجد، وما هي إلا لحظة حتى اهتدى إلى تازيرة فحركها فانفرجت عن بستان عظيم فيه سائر الثمار، ووجد بركة واسعة فيها أسماك متعددة الأحجام فدخلها وأخرج واحدة، ثم جاء إليك فلما رأيته على تلك الحال أردت قتله ففر ورمى بالسمكة في وجهك، ولما لقيته بعد أيام ضاحكته وطلبت منه عدم إفشاء السر.

ثم ذكروا أنك عرضت على رجل أن يؤمن بك على أن ترسل له عصفورة يأخذ من درقها وزن حبة فيضعها على كمية من النحاس فيتحول ذهباً، فقال لك الرجل: بل آمن بي أنت فسأبعث إليك بفيل إذا استلقى على قفاه بلغت قوائمه السماء، وإذا أردت أن تخفيه وضعته في إحدى عينيك فخفت منه وتركته.

ثم نسبوا إليك أنك دعوت أحد زعماء الرافضة ليؤمن لك فقال: إني أحب النساء ولكني أصلع، وقد بلغت من العمر فإن أنبت شعر رأسي زعمت نبوتك، فلم تجبه إلى طلبه عجزاً.

ثم إنك تتلون في ألبستك، فتارة تلبس خرقة التصوف، وتارة تلبس لباس الجند، وأخرى تلبس لباس الأمراء، ومرات لباس الفقراء والصعاليك، ولهذا قلت لمن اعترض تصرفك:

لئنُ أمسيت في ثوبي عديم      لقد بَلِيا على حر كريم  
فلا يغرك إن أبصرت حالا      مغيرةً عن الحال القديم  
فلي نفس ستتلف أو سترمي      لعمرك بي إلى أمر جسيم

بقية روحك - وردة



طاسين «الصفاء»

(الحقيقة دقيقة، طرقها مضيئة، فيها نيران شهيقه، ودونها مفاوز عميقة).

الحلاج



## 11

ضاق كبار رجال الدولة بنفوذ في قصر الخلافة، وكانت رعاية أم الخليفة المستمرة، والحاجب نصر القشوري لي، وميول الوزير علي بن عيسى للصوفية، سبباً في عداوة الوزير حامد بن العباس، إضافة إلى خوفه على ماله ومنصبه ما جعله يقود معركة المحاكمة، وابتدأت الحاشية تهمس في أذن الخليفة المقتدر بالله أنني أعد العدة لضربتي الكبرى لأتولى الأمر من بعده، وأكدوا له من خلال نظرية (القطب) الزعيم الحاكم، فطالما ناديت بحكومة الأقطاب والأولياء التي يحبها الله؟ لكن أكبر عائق أمام مؤامرات الأعداء هي جماهير بغداد التي التفت حولي مع بعض الكتاب والشعراء ورجال الفكر، إلا أن الاتهامات تضخمت حتى أربعوا الخليفة فنسي صداقته لي، وبدأ يضيق بي، ويعطي لي وجهاً غير وجهه الأول، وعندما نجح أعدائي في القصر بالوقعية بيني وبين الخليفة أمر بسجني داخل القصر، ومنع خروجي فلا يُسمح لي إلا تحت عيون جنده، ففترغت لتأليف كتابي «بستان المعرفة» بعد أن أودعت كتابي الطواسين، وديواناً شعرياً، وكتباً أخرى جمعت فيها كثيراً من الأقوال وناقشتها إلى صديقي الخالص أبي العباس أحمد ابن عطاء، خوفاً عليها من أعدائي، وكان صديقي ابن عطاء من أشهر علماء بغداد ومتصوفها المعروفين بالزهد لا ييزه في ذلك إلا الشيخ الجنيد، وكتبت له حين لم يعد يتمكن من مقابلي بسبب تربع الشرطه به:

(صديقي الخالص أبا العباس أطال الله لي حيويتك، وأعدمني وفاتك، وأبقاك علي أحسن ما جرى به قدر، ونطق به خبر، مع ما إن لك في قلبي لواعج أسرار محبتك، وأفانين ذخائر مودتك ما لا يترجمه كتاب ولا يحصيه حساب، ولا يفنيه عتاب، فإني إن ذكرت بركم لم انته إلى كنهه، وإن ذكرت جفاءكم لم أبلغ حقيقته، وكأني وقد تحزقت الأنوار، وتهتكت الأستار، وظهر ما بطن، وبطن ما ظهر، وليس من خير).

منع الخليفة الداخلين عندي غير أن حاجبه «نصر القشوري» الذي ظل وفيًا لي بقي يتردد علي ويقضي بعض حوائجي، ويبعث بعض غلمان القصر الذين أحبوني فيتحننون فرصة زيارتي، وقد دار بيني وبين نصر حوار عندما سألتني ذات مساء عن التصوف:

- هو طوامس وروامس اللاهوتية.

- أفصح في هذا المعنى؟

- لا عبارة عنه.

- فلمن أظهرته؟

- يعلمه من يعلمه، ويجعله من يجعله.

- أسألك بالله إلا فهمتني !.

- (لا تعرّض بنا فهذا بنان

قد خضبناه بدم العشاق).

- فمن هو الصوفي؟!

- من أشار إليه فهو متصوف، ومن أشار عنه فهو صوفي، إنه

وحداني الذات، لا يقبل أحدًا، ولا يقبله أحد.

ظل الصراع الفكري والعصبيات بين العرب والفرس والترك وبين القبائل العربية المختلفة على أشده في خلافة المقتدر بالله ورأيت خلال إقامتي في قصر الخليفة ترفاً ماجناً، ونظاماً فاسداً وظالمًا يزيد شره مع مرور الأيام، وخلافة متكبرة لا تدرك مآلها، لهذا قررت أن أصدق بدعوتي إلى العودة إلى الله فوجدت نفسي محاصرًا بالخصوم والأعداء فأدركت أن دعوتي في خطر ومنهجي الإصلاح في مهيب الريح، وأن الساعة الحاسمة تقترب، وتيقنت أن حركتي السلمية في تحقيق رسالتي عن طريق القصر فشلت وأنا أرى انقلاب الخليفة علي، وهجران أصدقائي في القصر، فلم يعد لهم فائدة تذكر، حتى أم الخليفة لم تعد تقبل رؤيتي، وخصومي في القصر وخارجه أعلنوها حرباً مفتوحة فقررت أن أخطو الخطوة الأخيرة لعلها تنجح، فأخذت أرسل بعض الغلمان برسائل لتحريك أتباعي من الوزراء وقادة الجيش بإعلان المقاومة الإيجابية في فساد الحكم وانحرافه عن رسالة الإيمان والدين، وأخذت رسائل تتوالى إلى أنصاري من العلماء والأدباء أعدهم للمعركة، وعادت اتصالاتي بالجماهير تتسع فتحرك وجدانهم وأثيرت مشاعرهم في جامع المنصور وشوارع بغداد، واستطاع أنصاري في قيادة (نصر القشوري) أن يصدروا أول بيان تاريخي منهجي لميزانية الدولة يعيد تنظيم سياسة الدولة المالية، ويخفف من قسوة الضرائب، ويتجه بفائض المال إلى الخدمات العامة بدلاً من إنفاقه على الخليفة وحاشيته، فغضب الوزير (حامد بن العباس) خصمي الأكبر فقام بحركة مضادة، إذ أغرى الخليفة باحتكار المخزون من القمح والمضاربة فيه بغية إشغال الناس في تدبير طعامهم فأجاب الوزير (علي بن عيسى) على هذا الإجراء بإثارة فتنة شعبية، وفيها أطلق نصر القشوري حبل العمل للحنبلة أصدقائي كونهم يرون رأيي في الدولة فقامت

احتجاجات في بغداد والبصرة والموصل، وقام الناس بمهاجمة مخازن المحتكرين.

أدرك الوزير حامد أن الخطر أصبح من الضخامة بحيث لا يقاوم إلا بالإقدام على مخاطرة ليست سهلة وهي القبض عليّ ومحاکمتي، وكان من المتوقع أن يكون القرار من الخليفة نفسه ولكنه جبن وتردد رغم إلحاح الوزير «حامد» عليه وتبصيره بالخطر المحقق به فلجأ حامد إلى السلاح الديني الشرعي فأتصل بالفقيه (محمد بن داود الظاهري)، وهو أحد أعضاء محكمة القضاء الكبرى ببغداد وكان يبغضني، فأغراه الوزير بالمال، وحرّضه باسم الخلافة والخليفة، وبطبيعة الحال استغل الفقيه (محمد بن داود) مركزه الشرعي فرفع أمري إلى المحكمة العليا طالباً محاكمتي والحكم بقتلي بدعوى الشعوذة وادعاء الألوهية!

جندّ الوزير حامد الشهود ليوم المحاكمة فأعد رجلاً من غمار الصوفية لقّنه أن يقول: إنه سمعني أتحدث في درسي بمسجد المنصور قائلاً: أنا الحق!

وجاء الوزير حامد برجل آخر من العامة ليشهد بأنه من أتباعي، وأني إله! وأني أزعم إحياء الموتى!.

حضرت المحاكمة في دار القضاء العالي، وواجهتُ الشهود الذين أحضرهم شاهد الزور (عبد الله بن مكرم) وقد بلغوا أربعة وثمانين شاهداً، فأنكرتُ ما نسب إليّ، وقلتُ: أعوذ بالله أن أدعي الربوبية أو النبوة، وإنما أنا رجل أعبد الله وأكثر له الصوم والصلاة وفعل الخير، ولا أعرف غير ذلك، وجعلتُ لا أزيد على الشهادتين والتوحيد وأكثرتُ من قول: سبحانك لا إله إلا أنت، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فاغفر

لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فانتصر لي القاضي (أبو العباس ابن سريج الشافعي) قائلاً: إن مثل هذا لا يدخل في القضاء، والأدلة غير ثابتة، ولا يوجد دليل واحد ضده، فأحضر الوزير حامد (بنت السمري) - والسمري صديق لي قديم لازمني وصحبني في بلاد فارس، وأقام معي في بغداد بعض الوقت - وأراد الوزير أن تشهد علي مقابل المال لكونها عاشت مع أسرتي زمناً فسألها الوزير عني أمام القضاة: فذكرت أن أباها السمري حملها إلي لتخدمني عندما سكنت دار الخليفة، وأنها لما دخلت علي وهبت لها أشياء كثيرة منها رِبْطَةٌ خضراء وتعني ثوباً من لون واحد، وقلت لها: قد زوجتك من ابني سليمان وهو أعز ولدي علي، وهو مقيم بنيسابور، وليس يخلو أن يقع بين المرأة وزوجها خلافاً، أو تنكر منه حالاً من الأحوال، وقد أوصيته بك، فمتى جرى شيء تنكرينه من جهته فصومي يومك، واصعدي آخر النهار إلى السطح وقومي على الرماد واجعلي فطرك عليه، أو على ملح جريش، واستقبلي بوجهك القبلة، واذكري لي ما أنكرته منه فإني أسمع وأرى.

ثم قالت للقضاة: كنت ليلة نائمة في السطح، وابنة الحلاج معي في دار السلطان، وهو معنا فلما كان في الليل أحسست به وقد غشيني، فانتبهت مذعورةً منكراً لما كان منه فقال: إنما جئتك لأوقظك للصلاة، ولما أصبحنا نزلت إلى الدار ومعني ابنته، ثم نزل فلما صار على الدرجة بحيث يرانا ونراه قالت ابنته: اسجدي له، فقلتُ لها: أو يسجد أحدٌ لغير لله؟ فأجابني هو: نعم، إله في السماء، وإله في الأرض، ودعاني إليه فأدخل يده في كمّه فأخرجها مملوءةً مسكاً فدفعه إلي قائلاً: اجعلي هذا في طيبك، فإن المرأة إذا حصلت عند الرجل احتاجت إلى الطيب، ثم قالت: إنني دعوتها وأنا جالسٌ في بيت البواري، فقلت: ارفعي جانب البارية وخذي

من تحتها ما تريدين، وأومأتُ إلى زاوية البيت فجاءت إليها ورفعت البارية فوجدتُ الدنانير تحتها مفروشةً ملء البيت، فبهرها ما رأت من ذلك، لكن القضاة لم يصدقوا كلامها لأنه بدون دليل، ولم يدونوا شهادتها تلك شكاً في كلامها، وقيناً في مكيدة الوزير، خاصة أنه من استجوبها.

ونسب إلي بعض الشهود اتّباعي للقرامطة في إبطال التكاليف الشرعية من صلاة وزكاة وصيام وحج، وإباحتي الخمر والزنا واللواط على مذهبهم.



قرر الوزير حامد سجنني خارج القصر فأخذني الجند إلى دار في ناحية الشرق من بغداد حتى يُنجز السجن الجديد، وقد كان الحاجب نصر يأخذني خفية إلى داره ويجمعني ببعض طلبة العلم، ولما أنجز السجن الجديد وأراد حامد نقلي هناك طلب القشوري من الخليفة أن يفتح باباً من السجن إلى داره ليزورني، ويدخل أصحابي فوافق على طلبه، فلما تنبه حامد لذلك أمر بأخذي إلى داره وتعذيبي عن طريق غلمانه.

بعد أيام زارني صديقي المخلص أبو بكر (الشبلي) في سجنني وجدني جالساً أخط في التراب فجلس بين يدي حتى ضجر فرفعت طرفي إلى السماء مناجياً :

(إلهي لكل حق حقيقة، ولكل خلق طريقة، ولكل عهد وثيقة)

- يا شبلي: من أخذه مولاه عن نفسه ثم أوصله إلى بساط أنسه كيف

تراه؟

- وكيف ذلك؟

- يأخذه عن نفسه، ثم يرده على قلبه فهو عن نفسه مأخوذ وعلى قلبه مردود، فأخذه عن نفسه تعذيب وردّه إلى قلبه تقريب، طوبى لنفس كانت له طائعة وشموس الحقيقة في قلبها طالعة.

ردّ الشبلي: عليك بالصبر فما أنت فيه لا يقواه غيرك، ثم غادر السجن.

بعد فشل المحاكمة الأولى أسرع الوزير (حامد) إلى إصدار أمر بتشكيل هيئة قضاء أخرى، وكان القاضي هذه المرة أبو عمر (محمد بن يوسف) ومعه القاضي (أبو جعفر بن البهلول) وجماعة من فقهاء الأحناف الذين لا يرون قبول توبة الزنديق، وأعيد الاتهام، وجاءوا بي، وتمت إضافة تهم أخرى:

- هل أنت إله؟ وهل تحيي الموتى؟

- هل تخدمك الجن؟

- هل تصنع ما تحب عن طريق المعجزات؟ كما يقول اليهود.

أنكرت ما نسب إلي بشدة، كما أنكرت معرفتي بالشهود، وقلت: أنا عبد الله أو من به وبرسله، وأدعو إلى الحق، وأنشد الخير للمسلمين، ولا أقر الظلم، ولا أعرف هؤلاء الشهود، ولا أقول غير هذا، وأعوذ بالله من الدعوى.

تعال صيحات الناس خارج دار القضاء، ووجد القضاة أنفسهم بين شقي رحى فعادوا إلى الوزير حامد ليبلغوه بأنهم لم يجدوا ما يوجب قتلي ولا عقابي، وفشلت محاولة الخصوم مرة أخرى.

جنّ جنون الوزير حامد بن العباس فأسرع إلى الخليفة المقتدر بالله ينشد التأييد والنصرة وهو يرى أن المحاكمات زادت من نفوذي،

وأصبح أنصاري في بغداد أكثر من أنصار الخليفة، وبعضهم كان يريد إشارة مني لقلب المدينة رأساً على عقب، إلا أن خوفي على دماء المسلمين جعلني أتحمّل مرارة الإهانة والتعذيب فقد تتحول بغداد إلى نهر دماء بسببي، وكان الخليفة أكثر حرصاً من وزيره، أو أكثر جبناً وخوفاً من تحمّل مسئولية دمي، فأمر الوزير حامد بأن يسلمني إلى (علي بن عيسى) عالم بغداد الذي أصبح خصمي اللدود ليناظرني بعد أن كان مدافعاً عني، ولعل كلمة تفلت مني فيأخذني بها، فلما حضرت مجلس المناظرة خاطبني (علي بن عيسى) خطاباً فيه غلظة، وقسوة فقلت له:

- قف حيث انتهيت، ولا تزد عليه شيئاً، وتأدب وإلا قلبت عليك الأرض.

فتهيّب علي ابن عيسى من مناظرتي، وطلب من الخليفة أن يعفيه فأعفاه، لكنني بقيت بين مصادرة حريتي وتحديد إقامتي طوال عدة أعوام بين سجنني في القصر وسجنني خارجه فاستكملت بعض الكتب منها: كتاب اليقين، وكتاب المتجليات، وكتاب موايد العارفين، وأودعت صاحب الفضل في حفظ كتبي من مصادرة الوزراء صديقي الوفي (أبو العباس ابن عطاء) إلا أن أعدائي استطاعوا في اللحظات الأخيرة أن يحرقوا جل ما كتبت من شعر ونثر، ورغم السجن وتحديد الإقامة الجبرية كنتُ أدخل مجلس الخليفة بين الحين والحين أعظه وأنذره، وأذهب أحياناً إلى جامع المنصور ألقى دروسي، وفي الليل أوصل التهجد والتضرع إلى الله في المكان المحبب إلى قلبي بين القبور على مشارف بغداد، وعند قبر الإمام أحمد بن حنبل في الغالب، ثم أعود بعد ذلك إما إلى سجنني في الدار، أو إلى مقر إقامتي في القصر بحسب ما يملئ علي جنود الخليفة لأدوّن ما فتح الله به عليّ.

## (شاهد)

عن ابن الحداد المصري قال: خرجت في ليلة مقمرة إلى قبر أحمد بن حنبل رحمته الله فرأيت من بعيد رجلاً قائماً مستقبلاً القبلة فدنوت منه من غير أن يعلم فإذا هو الحسين بن منصور وهو يبكي ويقول: يا من أسكرني بحبه، وحيرني في ميادين قربه، أنت المنفرد بالقدم، والمتوحد بالقيام على مقعد الصدق، قيامك بالعدل لا بالاعتدال، وبُعدك بالعزل لا بالاعتزال، وحضورك بالعلم لا بالانتقال، وغيبك بالاحتجاب لا بالارتحال، لا شيء فوقك ليظلك ولا شيء تحتك فيقلك، ولا أمامك شيء فيجدك، ولا وراءك شيء فيدركك أسألك ألا تردني إلي بعد أن اخذتني مني، وقال كلاماً لم أفهمه حتى سقط على الأرض فدنوت منه فزعت ثلاث زعقات وأشار إلي بكفه لما رأيته أن أذهب فذهبت، فلما أصبحت رأيته في جامع المنصور فأخذ بيدي وقال: بالله عليك لا تُعلم أحداً بما رأيته مني البارحة.



## 12

في أواخر سنة ثمانٍ وثلاثمائة للهجرة عاد إلى بغداد (مؤنس التركي) خادم الخلافة الذي أصبح كبير القادة العسكريين بعد أن أنقذ دولة العباسيين من الفاطميين في مصر، وكان عليه أن يحمي فارس من تهديد الديليين في وقت أصبحت فيه دولة الخلافة الإسلامية مقسمة الإدارة بين سلطات ثلاث:

- الدواوين والكتابة بيد الفرس.
- والخلافة والقضاء بيد العرب.
- والجنديّة والعسكرية بيد الترك.

وهذه السلطات الثلاث كانت تتعارض وتتآمر على بعضها، وكل فرقة تدس لغيرها الدسائس، وكان على الخليفة المقتدر بالله أن يوافق على تمويل حملة الدفاع عن مقاطعات فارس من أموال الضرائب، ولكنه لن يوافق على هذا إلا إذا تخلى عن ثقته بحاجبه (نصر القشوري) و بالوزير ابن عيسى، ولكي يقضي الوزير (حامد بن عباس) عليهما، ويبلغ ما يريده وجد في الخلاص مني الحل المنشود!

قرر الوزير حامد استئناف النظر في قضيتي بفضل مؤازرة كبير القادة (مؤنس التركي) وشيخ الحفاظ (أبو بكر بن مجاهد) وله كلمة مسموعة في بغداد، وهذا الشيخ من أشد أعدائي.

وانشرت شائعة ترددها محافل بغداد أني في طريقي إلى المحاكمة الفاصلة فثارت بغداد من جديد، وكان زعيم الثورة هو صديقي الأمين (ابن عطاء) كبير علماء الحنابلة وزعيمهم، ولهذا قرر الوزير حامد القضاء على صديقي أولاً فأحضره في مجلسه وسأله: ما تقول في حسين بن منصور؟، فأجابه: ما لك ولهذا، عليك بما نُصبت عليه من أخذ أموال الناس وظلمهم، ما لك ولكلام السادة، فغضب الوزير وقال لغلمانه: عليكم بفكّيه، فضربوا فكّيه بقبضات أيديهم، قال ابن عطاء: اللهم إنك سلطت علي هذا عقوبة لدخولي عليه، فأشار حامد لغلمانه بضرب رأسه بحذائه فزعوا حذاءه وضربوا به رأسه حتى خرج الدم من منخريه فأغمي عليه وحمل إلى داره، وبقي بها سبعة أيام ثم مات، وعندما علمتُ بالخبر وأنا في السجن حزنتُ حزناً شديداً.

هتف الثوار ضد الوزير (حامد بن العباس) في شوارع بغداد من أجل الاحتجاج ضد سياسته المالية، ومن أجل إنقاذي معاً، فوجد الوزير الفرصة الذهبية التي كان ينتظرها منذ زمن طويل بفارغ الصبر عندما منحه الخليفة المقتدر تفويضاً كاملاً بقمع الثورة ومحاكمتي والقضاء علي، وصدرت الأوامر الحاسمة بسجني سجنًا حقيقياً قاسياً، وتكبيلي بالأغلال والقيود، فقيدونني من كعبي إلى ركبتي بثلاثة عشر قيداً، وكنتُ أصلي مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة.

أعدّ الوزير للقضية شهودها، كما نظمت وثيقة الاتهام وفيها أتهمتُ بمراسلاتي السرية مع القرامطة، واعتقاد أتباعي بالوهيتي، وقولي: أنا الحق !.

وأخذ جنود الوزير حامد يحضرونني كل يوم إلى المحكمة مكبلاً

بالقيد وهم يحيطون بي من كل جانب، وبدأ الجدل والحوار وحاول الوزير حامد أن يجد في كلامي منفذًا، أو سقطة فأعجزه ذلك، وتتابعت الأيام، وتوالت الشهور وشاهد يأتي وشاهد يذهب وأنا كالجبل الأشم تتساقط على أقدامي اتهامات المبغضين، ويذوب أمام بياني وإيماني جدل المجادلين.

جدّ حامد في طلب أصحابي، وأذكى العيون عليهم، وفتش منازلهم، وكان يخرج إليه في كل يوم دفاتر مما حمل جنوده من دور أصحابي وتُجعل بين يديه فيدفعها إلى أحد كتابه ليقرأها عليه، فقرأ عليه في أحد الأيام من كتابي عن العبادة: (من أراد الحج ولم يتيسر له فليبن في داره بيتًا لا يناله شيء من النجاسة، ولا يمكن أحدًا من دخوله، فإذا كان في أيام الحج صام ثلاثة أيام وطاف به كما يطاف بالكعبة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا، يكسيهم قميصًا قميصًا، ويعمل لهم طعامًا طيبًا، فإذا أطعمهم وخدمهم وكساهم، وأعطى لكل واحدٍ منهم سبعة دراهم، أو ثلاثة، قام له ذلك مقام الحج).

فلما قرئ هذا على الوزير قال لي القاضي أبو عمر:

- من أين لك هذا؟

- من كتاب الإخلاص للحسن البصريّ.

- كذبت يا حلالّ الدم! قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا.

فلما قال لي: يا حلالّ الدم سمعها الوزير فقال له: اكتب بهذا؛ فدافعه أبو عمر إلى أن مدّ حامد الدواة من بين يديه إلى أبي عمر وألح عليه بالكتابة إلحاحًا لم يمكنه معه المخالفة فكتب (بإحلال الدم) وكتب معه بعض من حضر المجلس.

هنا استطاع الوزير حامد أن يتآمر مع القاضي المالكي أبي عمر - وهو معروف بتعلقه للقائمين بالأمر - بالقول الذي سيصدر به حكم إعدامي، وذلك بالاحتجاج بمذهبي بالاستغناء عن الحج لمن لا يستطيعه ليشبه أمري بأمر القرامطة الثائرين الذين أرادوا هدم الكعبة، وقد رفض القاضي الحنفي (ابن بهلول) الموافقة على حكم القاضي أبي عمر، ولكن مساعدته (الأشناني) الذي قبل مساعدة أبي عمر في هذا الاتجاه، ولم يحضر الجلسة أحد من الشافعية.

قلتُ: ما يحلّ لكم دمي واعتقادي الإسلام ومذهبي السُّنَّة، ولي فيها كتب موجودة، فالله الله في دمي!

تفرّق الناس وهم في ذهول من الأمر، وكتب الوزير إلى الخليفة يستأذنه في قتلي، وأبطأ الجواب يومين فكتب الوزير حامد له: (إن ما جرى في المجلس قد شاع وانتشر ومتى لم يتبعه قتل الحلاج افتتن الناس به)، وتدخل القائد مؤنس بنفوذ العسكري الكبير لدى الخليفة فعاد الجواب من الخليفة المقتدر بالله إلى حامد: (إذا كان القضاء قد أفتوا بقتله وأباحوا دمه فلتحضر (محمد بن عبد الصمد) صاحب الشرطة وليتقدم إليه بتسلّمه وضربه ألف سوط فإن تلف تحت الضرب وإلا ضربَ عنقه).

كان (محمد بن خفيف) معي حتى اللحظة الأخيرة وسمع جدران السجن تترنم معي بقولي:

(لي حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشي على خدي مشي  
روحه روحي وروحي روحه إن يشأ شئت وإن شئت يشا).

فلما كان بعد العشاء الأخير وافى (محمد بن عبد الصمد) إلى

حامد ومعه رجاله والبغال المؤكفة، فتقدم إلى غلماناه بالركوب معه حتى يصل إلى مجلس الشرطة، وتقدم إلي الغلام الموكل بإخراجي من الموضوع الذي أنا فيه وتسليمي إلى أصحاب (محمد بن عبد الصمد) فأخرجت وأرُكبتُ أحد تلك البغال، واختلطتُ بجملة الساسة، وركب غلمان حامد معي حتى أوصلوني إلى الجسر المؤدي لساحة السجن ثم انصرفوا، وبات معي (محمد بن عبد الصمد) ورجاله بعد أن أودعوني غرفة في السجن الجديد بباب الطارق بعد سلسلة طويلة من المحاكمات الظالمة.



إشارة (هـ)

من التمسَ الحق بنور الإيمان كمن طلب الشمس بنور الكواكب.

الحلاج



## 13

وجاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثمائة للهجرة، حين تعالى صوت الأبواق فشهدتُ بغداد حشدًا عظيمًا على ضفة دجلة الغربية في باب خراسان كان الحشد راجف القلوب، دامع العيون، كظيم الغيظ، وتركزت نظرات الجموع على شخصي وأنا أقف في أغلالي وقيودي التي بلغت ثلاثة عشر قيدًا في ساحة السجن الجديد أمام باب الطارق، وأنا مشرق الوجه، عالي الرأس، أبدو لهم شامخًا جليلاً، وقد أحاطت بي صفوف الجند، وطوقتني زبانية العذاب، وارتفعتُ إلى السماء قوائم خشبيةً غليظةً جُللت بالسواد أُعدت لجلدي وتعذيبي، ثم صليي بعد ذلك.

قلت: يا معين الفناء عَلَيَّ أعني على الفناء.

ثم أخذت أتبختر في قيودي لأغيظ الأعداء وأنا أنشد:

طلبت المستقر بكل أرض فلم أر لي بأرض مستقرا  
فملت من الزمان ونال مني وكان مناله حلواً ومُرا  
فلما جروني للصلب رأيتُ الخشبة والمسامير فضحكت كثيراً حتى  
دمعت عيناى، ثم التفْتُ إلى القوم، فرأيتُ رفيقي الشبلي بينهم، فقلتُ له:

- يا أبا بكرٍ، هل معك سجادتك؟

فقال: نعم يا شيخ.

قلتُ: افرشها لي، ففرشها، فصليت عليها ركعتين، قرأتُ في الأولى فاتحة الكتاب، ثم قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ \* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ \* أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾<sup>(1)</sup>، وقرأتُ في الثانية فاتحة الكتاب، ثم قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ الْكَارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَعٌ الْفُرُورِ﴾<sup>(2)</sup>، فلما سلَّمتُ دعوتُ الله باللطف والمغفرة، ثم قلتُ:

(اللهم إنك المتجلي عن كل جهة، المتخلي عن كل جهة، بحق قدمك على حدثي، وحق حدثي تحت ملابس قدمك، أن ترزقني شكر هذه النعمة التي أنعمت بها عليَّ حيث غيبت أغباري عما كشفت لي من مطالع وجهك، وحرَّمت على غيري ما أبحث لي من النظر في مكنونات سرِّك، هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك، وتقرباً إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي لما فعلوا ما فعلوا، ولو سترت عني ما سترت عنهم لما ابتليتُ بما ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد).

ثم سكتُ وناجيتُ ربي سرًّا، فتقدم (أبو الحارث) السيف فلطمني لطمَةً هشمت أنفي، وسال الدم على شبيبي، فصاح الشبلي ومزَّق ثوبه، وغُشي على أبي الحسن الواسطي، وعلى جماعة من الصوفية المشهورين، وكادت الفتنة تهيج، ففعل أصحاب الحرس ما

(1) سورة البقرة، الآيات: 155 - 157.

(2) سورة آل عمران، الآية: 185.

فعلوا بالناس من قمع وضرب! ثم تقدم صاحب الشرطة فشدني إلى آلة الصلب حيث رفعوا جسدي على العمود القائم وشدوا صدري بحبال من تحت إبطي إلى العمود، وشدوا بحبل آخر يدي اليمنى ممدودة على عمود معترض في أعلى العمود القائم، وفعلوا باليسرى كذلك، ثم شدوا ساقِيَّ إلى أسفل العمود فبدوت كأني المسيح مصلوبًا كما روى النصراني، ثم أمر صاحب الشرطة (محمد بن عبد الصمد) الجلاد بأن يضربني ألف سوطٍ، فأخذ الجلاد يضربني وأنا صامتٌ لا أتأوه، ولا أضطرب، ولا أستعفي، وإنما أقول: أحدٌ.. أحدٌ.. حتى بلغ الجلاد ستمائة سوطٍ، قلتُ لصاحب الشرطة:

- ادنْ مني فإن عندي نصيحة تعدل عند الخليفة فتح القسطنطينية.

فقال: قد قيل لي عنك إنك تقول هذا وأمثاله، وليس لي أن أرفع الضرب عنك، فسكتُ حتى ضربتُ ألف سوطٍ، فلما أتم الجلاد ما كُلف به تركني وتنحى جانبًا طلبتُ الصلاة فلم أُجب لطلبي، وأخذتُ أتواجد وأبتخر في هيئتي، وفي قدمي كل تلك القيود والدم ينزف من ظهري وأنفي، ثم رحْتُ وروحي ثملة أنشد لمن حولي:

نديمي غير منسوب إلى شيء من الحيف  
دعاني ثم حيانِي فعل الضيف بالضيف  
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

ثم قرأت قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ  
ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لَفِي  
ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾<sup>(1)</sup>.

(1) سورة الشورى، الآية: 18.

تقدم السيف نحوي مشهراً سيفه ومن حوله حملة الرماح والدرع فقطع يدي اليمنى من مفصل الكف، ثم قطع يدي اليسرى من المفصل فلم أجزع أو أتأوه، وبقيتُ مبتسماً، ولم يفتر لساني عن ذكر لله ومناجاته، لقد اعتصمتُ بشيءٍ أعظم من كل ما يدب على وجه الأرض من عدوانٍ وبغيٍّ، اعتصمتُ بإيماني، ولذتُ بحبي، ولجأتُ إلى ربي، فغبتُ عن نفسي وعن حسي، فسموتُ إلى الأفق الأعلى، ودخلتُ نشوة المشاهدة فشعرتُ بنعيم القرب الذي أنساني ما أرى وما أتذوق من هول الآم وعذابٍ، ولما أخذ وجهي في الاصفرار لكثرة ما نرف من دمي مسحتُ بذراعي النازفة على وجهي فخضبتُه بالدم حتى أخفي اصفراره، وقلتُ مبتسماً: ركعتان في العشق لا يصح وضوءهما إلا بالدم فصليت واقفاً مصلوباً ثم أنشدتُ مترنماً بأعلى صوتي :

مانالني عند هجوم البلا بأس ولا مسّني الضرر  
ما قد لي عضو ولا مفصل إلا وفيه لكم ذكـر

تطير هذا النشيد الحار المؤمن إلى الجماهير المحتشدة فارتفع الزئير المرعد من أفواه الرجال، وأغمي على كثيرٍ من النساء، وماجت الصفوف بالتهديد السافر، والغضب المتوهج، وأسرع الجند إلى سياطهم وجراهم، وازداد الموقف توتراً في ساحة الصلب! بينما طافت نُذر الثورة في أزقة بغداد وشوارعها، وزاد الحقد والغضب بالوزير حامد وعصبته فأخذوا يتصيدون بعض أعوانهم من صفوف الصوفية والفقهاء ليدفعوا بهم حول منصة الصلب ليرموني بالسباب، ويتهمونني بالمروق، علَّ هذا الاتهام يخفف من إيمان الجمهور بي، وغضبتُه لي.

وجاء أبو الحسن البلخي عند الخشبة، وقال لي:

- الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله، كيف رأيت تقبيل الناس يديك، وقولهم لك: يا سيدي ويا مولاي وأنت راضٍ بذلك؟! فلم أجبه.  
وأخذ الجند يحضرون بعض أفرادٍ من الصوفية لينالوا مني، ثم أتى الجند برفيقي أبي بكر الشبلي يجرونه بين الجموع وقد وضعوا منديله في عنقه، وهم يسحبونه إلي ليلعنني! فتأبى من ذلك وقال:  
- اتركوني .

- فقالوا: ما نتركك حتى تلعنه، أو ترسل إليه رسولاً بذلك !.

التفت الشبلي يميناً وشمالاً فرأى فاطمة الأموية، فقال لها: ادني مني يا فاطمة، فدنت، فقال لها:

- اذهبي إلى الحسين بن منصور فقولي له: إن الله قد ائتمنك على سرٍّ من أسراره فأذعته، فأذاقك طعم الحديد، واحفظي ما يقول لك، ثم اسأليه عن التصوف، وما هو؟.

جاءت فاطمةٌ إلي، فقالت: أنا رسولة أبي بكر الشبلي، فابتسمتُ لها، ثم قلت: هاتي ما معك.

- قالت: إنه يقول لك: إن الله قد ائتمنك على سرٍّ من أسراره فأذعته فأذاقك طعم الحديد، فقلتُ لها:

تجاسرت فكاشفتك لما غلب الصبر

وما أحسن فيك أن ينكشف الستر

وإن عنفني الناس ففي وجهك لي عذر.

ثم قلت: اذهبي إلى أبي بكرٍ فقولي له: يا شبلي والله ما أذعت له سرًّا.

فقال فاطمةُ: فما حقيقة التصوف؟

- أهون مراقبةٍ فيه ما ترين .

- قالت: فما أعلاه؟

- ليس لكِ إليه سبيل، ولكن سترين غداً ما يجري، فإن في الغيب ما شهدته وغاب عنك، والله ما فرقتُ بين نعمةٍ وبلوى ساعةً قط .

فعدت فاطمةُ إلى الشبلي، فأعدت عليه ما قلته لها، فصاح الشبلي:

- يا معشر الناس: الجواب الأول لكم، والثاني لي .

ثم قام الحراس فشدوا وثاقي إلى آلة الصلب، وأخذوا يتفننون في إيلامي وتعذيبي بألسنتهم وسياطهم، ومضى ذلك اليوم وغربت شمس نهاره، وجاءت الليلة الأولى من ليالي العذاب فبتها على صورةٍ لم تُعرف لغيري في التاريخ، بتها مقيداً مصلوباً مقطوع اليدين تنزف جراحي دمًا! وبات جمهور البغداديين حولي على الضفة الغربية لدجلة يرقب المأساة، ويشهد الفاجعة، ويتتبع بعواطف متضاربة، مشاهد مسرحية حية دامية تدور أحداثها أمام الأعين فأنا رجلٌ أعزل ينازل وحده في بطولةٍ متحدية صابرةٍ وشامخةٍ تلك القوة الحاكمة، وهي أعظم قوى الأرض في عصرها!

\* \* \*

يا له من منظر لم تشهد له عيني مثيلاً من قبل فمئات المشاعل تضيء شواطئ دجلة وتكشف آفاقها، وتغمر مياهها بالألوان والظلال، وقامت حلقاتٌ وأروقةٌ للذاكرين من الصوفية، وللمجادلين من المعتزلة، وللمتناظرين من الحنابلة، وللمتعصبين من الشيعة هنا وهناك، يديرون حديث القلب والعقل حول المشهد العظيم الذي هزَّ بغداد، وأطار النوم من جفونها، وعن أيمانهم وعن شمائلهم شتيتٌ من

الأجناس والطوائف متعددة الأهواء والثقافات والميول والاتجاهات، ويمشي بين صفوف هؤلاء وهؤلاء تلاميذي وأحابيي يتحدثون عن إيماني ورسالتي، وكراماتي وعجائبي، ويشتط الخيال بفريقٍ منهم فيذهب بهم بعيداً بعيداً ليضفي عليّ قداساتٍ أكثر مما تطيق البشرية، وأعلى مما تستطيع الإنسانية، وتتلقف آذان الجماهير هذه الأحاديث البارة الملونة فتخفق قلوبهم للشهيد المعذب المصلوب، وتثور عواطفهم للقطب المضطهد المظلوم، وداخل هذا الإطار الكبير بألوانه وظلاله أقف مشدوداً بوثاقي على مصليبي الدامي مترنماً بألحاني، محلّقاً في نشوةٍ قلبيةٍ أكبر من آلامي، وفي ثَمَلٍ روحيٍّ أعظم من عذابي الذي فقدتُ الإحساس به.

كنتُ في عالمي العلوي الروحي المضيء بعيداً.. بعيداً عن الأرض وما يُدبّر فيها، وما يُصبّب عليّ من عذاب من لم يذق مذاقه ويحيا حبي فليس في شيء.

وكان الوزير حامد قد أمر جنده بحراسة أهلي في منزلي ومنعهم من الخروج إلى ساحة الصلب لكي لا يراني أبنائي وزوجتي في تلك الحال إلا أن أختي (أم الفداء) تسللت في آخر الليل ودخلت بين الجموع تصيح: واأخاه... واحسرتاه.. فمنعها الجند من الوصول إليّ.

وجاء صباح اليوم الثاني فتضاعفت أعدادُ البغداديين حول مصليبي، واجتمع من العامة عددٌ لا يُحصى، وبدأ العذاب من جديد في يومه الثاني، فقطعت رجلي اليمنى من مفصل الكعب، ثم اليسرى بعد ذلك فذهب ما بقي في جسدي من دماء، ومع قطرات الدم المتساقطة ارتفعت السياط وهوت تمزق ما بقي من أديمي الصابر الصامد.

ولما قُطعت رجلاي قلتُ: (إلهي أصبحتُ في دار الرغائب، إلهي إنك تتودد إلى من يؤذيك، فكيف لا تتودد إلى من يؤذى فيك)، ثم أُنشدتُ:

اقتلونني يا ثقتاي إن في قتلي حياتي  
ومماتي في حياتي وحياتي في ممئاتي  
إن عندي محو ذاتي من أجل المكرمات  
وبقائي في صفاتي من قبيح السيئات  
فاقتلونني واحرقوني بعظامي الفانيات  
ثم مروا برفاتي في القبور الدارسات  
تجدوا سرّ حبيبي في طوايا الباقيات

بعد أن ردد الناس معي هذه الأبيات سمعتُ فارسًا في الجند يقول:  
قُطعت أعضاء الحلاج عضوًا عضوًا وما تغير لونه، وما فتر لسانه عن ذكر  
الله، وها هو ينشد الشعر!

وجاءت أختي من بين الجموع حاسرة الرأس حافية القدمين قد بحَّ صوتها من العويل وعندما رأت أطرافي ملقاةً حولي أخذت تقبل يديَّ ورجليَّ وتضمها إلى صدرها وتبكي، والجند يضربون ظهرها وبطنها حتى سقطت على الأرض، فقلت لها: يا أختاه لا تبكي ولا تحزني أنا في أحسن حال فذهلت من كلامي لتصيح أفديك يا أخي.

فرددتُ عليها: اصبري واحتسبي وإذا أحرقوني وذروا رماد جسدي في النهر فإن دجلة ستفيض وتصل إلى شراشيف البرج فقولي لها: لا تغرقي أهل بغداد فإن أخي قد سامح كل من أساء إليه، فهدأ نحيبها وأخذها رجلان من الشرطة إلى مكان بعيد، وربما أعادوها إلى المنزل.

تتابعته مشاهد العذاب في اليوم الثاني من جلدٍ وصفعٍ وركلٍ وسبابٍ وأنا على مصلي ممزق الجسد، تتساقط قطرات الدماء المتبقية من سائر جسدي، فأشعر بنشوةٍ روحيةٍ فأقول: روجي أعلى وأسمى وأقوى من كل ما صُبَّ علي من هولٍ وعذابٍ.

كنتُ في تسابيحِي، ومواجدي، ومناجاتي غير ملتفتٍ إلى ما بُتر مني، وما يحيط بي من عذابٍ وعداءٍ، لقد تفتحت لي أبواب السماء، وأحاطت بي هالاتٌ من النور، وفي سمعي ألحانٌ من الأفق المضيء، وترنيماتٌ من أوتارٍ خفيةٍ وقعت على موسيقاها ابتهالاتي، فمثلما كانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم (عليه السلام) كان تعذيبي نشوةً روحيةً وخلاصًا من الأرض إلى السماء.



توالت مشاهد تجلّت فيها عندي أسمى ما في النفوس الإنسانية من مثاليات وأنا أسمع هتافات الناس ودعاءهم، وأحط ما في الغرائز البشرية من صفات عند الوزير حامد حين أقام وصحبه حول مصلي أعوانًا لهم من اتباع الصوفية من أمثال أبو بكر بن مجاهد وبعض طلبة العلم من أتباعه يمثلون الدنيا سبابًا وصياحًا هاتفين:

- اقتلوا الحلاج الزنديق وفي أعناقنا دمه!

ثم أخذ الجند يجمعون أعدائي من الفقهاء والصوفية ليرجموني، وأنا في موقف الهول والتعذيب، فامتنع فريقٌ كبيرٌ عن هذا الإثم، صبروا وصابروا، واحتملوا الجلد والبطش من أجلي، ولم تقترب أيديهم  
السوء!

وقد استفدت من تجاربي في المجاهدة خاصة تجربة (الصوم) التي تمثل همزة الوصل بين الخالق والمخلوق فشعرت بأقصى درجات النشوة والمنعة والافتدار، بينما يراني الناس في عذاب شديد.

ثم جيء بصاحبي الشبلي ليرجمني وهو في حالة من الحزن والتعب، وأقسموا على قتله إن لم يفعل فأذنتُ له وطالبتُه أن يفعل صوتاً لدمه فلم تعد في بقية باقية فرماني بوردة نزعها من جيبه، ثم بكى وصاح صيحة ظننت معها أنه فارق الحياة، فوقعت الوردة على صدري فكانت أشد عليّ من السياط والتقطيع وانتزعت جزءاً من روحي فشعرت بها تحلق حول وجهي، ثم صعدتُ في الفضاء، لكنني لم أفقد إحساسي لأن الجزء المتبقي من الروح بداخلي يدفعني للتماسك.

ومضى اليوم الثاني وجاءت الليلة الثانية وأنا صامد لهولٍ لم يصمد له أحدٌ من قبل، ومضى الليل ثقیلاً بطيئاً، ورفرف الموت على الساحة الكبرى، وأخذتُ ظلال المشاعل ترسم أطرافاً حزينةً باكيةً وأنا في مناجاتي وتضرعاتي التي ترسم في عالم الروح صرخاتٍ تهزُّ عالم النور، عالم الروح والنور الذي سعيت إليه ليؤنسني في لحظاتي الأخيرة، وكلما نظرت في الساحات رأيت الناس قد نصبوا الخيام، وأشعلوا المشاعل، وأقاموا حلق الذكر والدعاء، وجاء من يُشربني الماء ويدفع في جوفي سوائل لا أميّز طعمها وأنا في حالة فناء لله الذي أورشني البقاء به سبحانه كل هذا الوقت، ومع كل هذا العذاب، ومن بقي بالله عاش في عالم المشاهدة، وتفتحت عين روجه لتطل على الوجود فأنا الباز الأشهب في عالم الروح، وهو مقامٌ أعلى وأسمى من القبطانية، وإنني شربته من مقام الصديقية، وهو مقامٌ لا يعلوه إلا مقام النبوة، فغدوتُ ربانياً أعيش تحت العرش، لقد حطمتُ براهيني جبال الأكاذيب التي

أحاطت بي، وأنا الذي شاع ذكري في الملاء الأعلى، وخضت بحر الهوى قوياً كحوت يونس لأخرج أروع الجواهر، ولم أجد في عصري من يفهم قيمة هذه الجواهر، فأصبحت كمن يبيع الجواهر للفحامين، وكالذي يوقد الشموع في قاعات العميان، وكالذي يضع السر في أكمام عريان.

احتشد الأقطاب والأولياء جميعاً ليشهدوا مقتلي وفي مقدمتهم (الخضر بن آدم) عليه السلام فأنسني وحياني وهو الذي سعى في طلب الماء لقومه حين أصابهم العطش فشرب من ماء الحياة فخلده الله، قال: اصبر فلن ترى عذاباً بعد اليوم بإذن الله.

وخاطبني السيف الذي بيد السيف بحضرته وناجاني:

- هل أتوقف عن القطع؟

- لا - لا، أفعل ما تؤمر.

ولو أردتُ لا تمتنعَ السيف عني، ولو شئتُ لهدمت بغداد على البغاة، ولكن الخضر عليه السلام والأقطاب طالبوني بأن أموت شهيداً كما مات عثمان بن عفان رضي الله عنه، وألاً أخلع أبداً الخلافة الباطنة، كما لم يخلع عثمان بن عفان الخلافة الظاهرة.

تقدم إلي في الليلة التي صُلبت فيها «ابن خفيف» وأنا على خشبة المصلب بحالتي التي رأني عليها من قبل، فقلت له:

(عاملنا بالحقيقة، فعمل بنا ما ترى) فمضى متفكراً.

ومضى الليل الطويل بهوله على الناس، وجاء اليوم الثالث بما شهده من أحداث، ومع الفجر طافت جموع الشعب ببغداد، تُحطّم وتدمّر، وتطالب بإنقاذ ما تبقى مني! وأنا أنشد:

عجبت منك ومني يامنية المتمني أدنيني منك حتى ظننت أنك أني  
وغبت في الوجد حتى أفنيني بك عني يا نعمتي في حياتي وراحتي بعدد فني  
مالي بغيرك أنس وإذ كنتُ خوفي وأمني يا من رياض معانيه قد حوت كل فن

وإن تمنيتُ شيئاً فأنت كل التمني

ووصلت الأخبار الخليفة المقتدر بأني ما زلت حيًّا في اليوم الثالث  
رغم كل الضرب والتقطيع لجسدي الذي مارسه وزيره حامد وجنده  
فارتعد الخليفة وجبن لَمَّا سمع الناس يهتفون باسمي في نواحي بغداد،  
وظن أن سقوطه قد حان، وأسرع إليه حاجبه نصر القشوري ووالدته  
(شغب) ينذرانه عاقبة مأساتي، ويناشدانه باسم الدين والإنسانية العفو  
عن الجسد الممزَّق، والبطل المصلوب الذي قطعت أطرافه وتوشك  
دماؤه التي لونت الساحة على شاطئ دجلة أن تدفع ببغداد إلى ثورةٍ  
مدمرةٍ تطيح كلَّ شيءٍ.

خضع المقتدر للرجاء، أو خضع للخوف، فاعتزم العفو، فلما بلغ  
مسمع وزيره حامد ما يدور في القصر أسرع إلى الخليفة يناشده أن يتَّمَّ  
ضربته الكبرى بقتلي، منذرًا بأن العفو في هذه الساعة الحاسمة قد يلهب  
بغداد أكثر مما يلهبها القتل، ثم صاح حامد:

- اقتله يا أمير المؤمنين وفي عنقي دمه، اقتله وإن حدثت الثورة التي  
يتنبأ بها نصر فاقتلني، اقتله قبل أن تثور العاصفة.

- وبين التردد والعزم صدر الأمر الأخير من فم الخليفة:

- اقطعوا رأس الحلاج، وأحرقوا جسده!

وبينما كان الثائرون يحرقون بعض الدكاكين تقدم الوزير حامد

إلى الخشبة فتلا أمر الخليفة، ثم قرأ فتوى الفقهاء التي تقول إن في قتلي صلاحَ أمر المسلمين!، ثم أمر السيف بقطع رأسي والإجهاز عليّ وكنت أضحك، فقال الحلواني :

- يا سيدي : ما هذه الحال؟

- قلت: دلال الجمال الجالب إليه أهل الوصال.

وكانت آخر عبارة تكلمتُ بها: (حسب الواحد، أفراد الواحد له)، فما سمع بهذه الكلمة أحدٌ من المشايخ إلا رَقَّ لي، واستحسن هذا الكلام ثم ضُربتُ عنقي، فبقي جسدي ساعتين من النهار قائمًا ورأسي بين رجلي في الأرض وأنا أناجي ربي وأقول: أحدٌ.. أحدٌ، وكتب دمي على الأرض: الله، الله في أكثر من ثلاثين موضعًا، ولم يبقَ في بغداد إلا من شهد قتلي إلا أهلي، والتفَّ الناس حول جسدي فقلت لهم: (من حضر بطلت شهادته، ومن غاب قبلت شهادته)، وناداني بعض الصوفية وأنا مصلوبٌ فقالوا: من طلق الدنيا كانت الآخرة حليلته.

وبقيت ثلاثة أيام مقطوع الرأس لكن بقية روعي لم تغادر بقية جسدي وحولي ملائكة كالنجوم يطوفون انتظارًا لخروجها، وعندما أنزلني الجند من خشبة الصلب وجدوا جسدي حارًا وأجزائه تنبض بالحياة فهالهم الأمر وتداعوا ففتشوني فوجدوا ورقة في صدري كتبتُ فيها قبل أخذي من السجن إلى خشبة الصلب آية الكرسي وقولي: اللهم ألِقْ في قلبي رضاك، واقطع رجائي عمن سواك، وأعني باسمك، بـ«حم عسق» الأعظم، وأعطني بالحلال عن الحرام، وأعطني ما لا ينبغي لأحدٍ غيري بـ«كهيعص» وأمتني شهيدًا، فلما نزعوا الآية والدعاء تسابق الملائكة لضم بقية روعي وصعدوا بها إلى السماء.



## طاسين «الدائرة»

حقيقة الحقيقة: البراني ما وصل إليها، والثاني وصل وانقطع،  
والثالث ضلّ في مفازة حقيقة الحقيقة.

الحلاج



## 14

بعد صعود بقية روحك لَفَّوا جسدك في باريةٍ ورموه في النار التي أشعلوها، وبعد أن تحول إلى رماد جمعه وصعدوا به إلى رأس المنارة المطلة على دجلة ونثروه لتسفَّه الرياح على سطح النهر، أما رأسك فقد نصبوه على عمود بالجسر في وسط بغداد ليومين، ثم أمر الوزير حامد أن يُطَاف به في المدن ليعتبر الناس إلى أن أخذته السيدة (شغب) أم الخليفة المقتدر فحنَّطته وعطرته وأبقته في خزانها عامًا كاملاً، ثم أمرت بعد العام أحد العمال بإشراف حاجبها (علي بن بليق) بدفنه في بيت صغير اشترته لذلك الأمر في شارع ضيق في محلة الشيخ جانب الكرخ لا تزيد مساحته على مائة وخمسين مترًا مربعًا فوضع العامل رأسك في قبر لا يزيد عن متر طولاً ونصف المتر عرضاً.

بعد أن نثروا رماد جسدك فاض نهر دجلة وأغرق بغداد حيث دخلت مياهه البيوت فخاف الناس من ذلك أشد الخوف وأعظمه، وماجت المدينة بالغضب فنهب الناس الدكاكين، وقتل المقتدر جماعة من الأعيان غضبًا لما حدث من نهب وسلب فهذأت الأمور، وماتت زوجتك أم الحسين حزنًا عليك، وأصاب أختك الوهن والحزن فما برحت دارها حتى توفيت، وتفرق أولادك في الأرض فذهب سليمان إلى نيسابور، وعبد الصمد إلى فلسطين وهناك تزوج وأنجب، أما أحمد

فبقي مع أخته وعمته في بغداد لا يخرج من البيت إلا للحاجة، ولما ماتت أختك أم الفداء دفنها، ثم سافر مع أخته إلى دمشق، وبعد أن استولى الصليبيون على فلسطين خرج أحفادك من أبناء عبد الصمد إلى دمشق، ثم هاجر بعضهم إلى أوروبا بعد احتلال الشام من النصارى في أواسط القرن العشرين، وتمت هيمنة اليهود على فلسطين.

حلّت سنة إحدى عشرة وثلاثمائة للهجرة فعزل الخليفة وزيره حامد ووّرر بدلاً عنه علي بن الفرات الوزارة الثالثة فانتقم ابن الفرات من حامد شر انتقام نظير ما فعله به عند توليه الوزارة حيث أفحش له، وجذب بلحيته، وعذب أصحابه، فلما انعكس الأمر على حامد تنمّر له ابن الفرات، ووبخه على فعاله، فقال حامد: (إن كان ما استعملته فيكم أثمر لي خيراً فزيدوا منه، وإن كان قبيحاً وصيرني إلى التحكم فيّ فالسعيد من وُعظ بغيره) فسلمّ ابن الفرات حامد إلى أحد رجاله يقال له المحسن فعذب حامد بألوان العذاب، فيجعله يشرب الخمر حتى إذا ثمل أخرجته وألبسه جلد قرد، وأرقصه فيصفعه المارة، وفعل به ما يُستحى من ذكره، ثم نكل به وقطع بعض أطرافه ثم أرسله إلى واسط بعد قتله، وصلى الناس على قبره أياماً.

وفي سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة للهجرة: استولى القرامطة على ركب العراق، وكان في من أسروا أبو الهيجاء بن حمدان، وعمّ السيدة والدة الخليفة، ثم إن المقتدر سلّم ابن الفرات إلى حاجبه وقائد جيشه مؤنس بعد أن اتهمه بالتآمر عليه فصادر مؤنس أموال ابن الفرات وقتله.

وفي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة للهجرة: نهب القرامطة الكوفة، وعزل الخليفة الخاقاني من الوزارة واستبدله بأحمد بن الخصيب.

وفي سنة أربع عشرة وثلاثمائة للهجرة استباح الروم ملطية

بالسيف، وقبض الخليفة على أحمد بن الخصيب بتهمة التآمر على الخلافة ووزر علي بن عيسى، وأخذت الروم سميساط، وجرت وقعة كبيرة بين القرامطة والعسكر، وأسرت القرامطة قائد العسكر (يوسف بن أبي الساج)، ثم أقبل أبو طاهر القرمطي في ألف فارس وسبع مائة راجل، وقارب بغداد، وكاد أن يملكها فضج الخلق بالدعاء، وقطعت الجسور مع أن عسكر بغداد كانوا أربعين ألفاً، وفيهم القائد مؤنس، وأبو الهيجاء بن حمدان وإخوته، وقرب القرمطي حتى بقي بينه وبين البلد فرسخان، ثم أقبل وحاذى العسكر، ونزل عَبْدُ يَجْسُ المَخائِض، وأقام القرامطة يومين، وترحلوا نحو الأنبار، فما جسر العسكر أن يتبعوهم، وحل بالخليفة والدولة الخذلان، وانهزم معظم عسكر المقتدر إلى بغداد قبل المعاينة لشدة رعبهم، ونازل القرمطي في هيت مدة فُرْدَ إلى البرية.

وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة للهجرة: دخل أبو طاهر القرمطي الرحبة بالسيف، ثم قصد الرقة، وبدع وعمل العظام، واستعفى علي بن عيسى الخليفة من الوزارة، فوزر أبو علي بن مقله، وبنى القرمطي داراً سماها دار الهجرة وكثر أتباعه، وكتبه المهدي من المغرب، فدعاه إليه، وتفاقم البلاء وأقبل الدُمستق في ثلاثمائة ألف من الروم، فقصد أرمينية فقتل وسبى أهلها، واستولى على خِلاط.

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة للهجرة جرت خبطة ببغداد، واقتتل الجيش، وجرى ما لا يوصف، وهموا بعزل المقتدر، وانفق على ذلك مؤنس وأبو الهيجاء ونازوك، وأتوا دار الخلافة، فهرب الحراس والوزير ابن مقله، فأخرج المقتدر وأمه وخالته وحرمه إلى دار مؤنس، فأحضره محمد بن المعتضد وكان محبوباً فبايعوه، ولقبوه بالقاهر، وأشهد المقتدر على نفسه بالخلع، وجلس القاهر في دست الخلافة، وكتب

إلى الأمصار، ثم طلب الجيش رسم البيعة ورزق سنة فارتفعت الضجة، وهجموا فقتلوا نازوك والخدام عجبياً، وصاحوا: المقتدر يا منصور فهرب الوزير الحاجب، وصار الجند إلى دار مؤنس، وطلبوا المقتدر ليعيدوه، وأراد أبو الهيجاء الخروج فتعلق به القاهر، وقال: تسلمني؟ فأخذته الحمية، وقال: لا والله، ودخلا الفردوس ثم خرجا إلى الرحبة، وذهب أبو الهيجاء على فرسه فوجد نازوك قتيلاً، وسُدَّت المسالك عليه وعلى القاهر، وأقبلت خواص المقتدر في السلاح، فدخل أبو الهيجاء كالجمل، ثم صاح: أقتل بين الحيطان؟ أين الكميت؟ أين الدهماء؟ فرموه بسهم في ثديه، وبآخر في ترقوته، فنزع منه الأسهم، وقتل واحداً منهم، ثم قتلوه، وجيء برأسه إلى المقتدر، فتأسف عليه، وجيء إليه بالقاهر فقبله، وقال: يا أخي، أنت - والله - لا ذنب لك، وهو يبكي ويقول: الله في دمي يا أمير المؤمنين.

وطيف برأس نازوك وأبي الهيجاء في الأحياء، ثم أتى مؤنس والقواد والقضاة وبايعوا المقتدر، وأنفق في الجند مالا عظيماً، وحج الناس في ذلك العام فأقبل أبو طاهر القرمطي، ووضع السيف بالحرم في الوفد، واقتلع الحجر الأسود، وكان في سبعمائة راكب، فقتلوا في المسجد الحرام أكثر من ألف من المسلمين، ولم يقف أحد بعرفة في ذلك الحج، وصاح القرمطي مستهتراً بالناس والدين: يا حمير، أنتم قلتهم: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا فَأَيْنَ الْأَمْنُ؟

وأما الروم فعاثوا في الثغور، وفعلوا العظائم، وبذل لهم المسلمون الإتاوة، ووزر المقتدر في سنة ثمانى عشرة (سليمان بن الحسن) ثم قبض عليه في سنة تسع عشرة، واستوزر (عبيد الله بن محمد الكلوذاني) وظهر مردوايح في الديلم، وملكوا الجبل بأسره إلى حلوان، وهزموا

العساكر، ثم عزل الخليفة المقتدر وزيره الكلوذاني واستبدله بالحسين ابن القاسم بن عبيد الله وقلّت الأموال على المقتدر، وفسد ما بينه وبين حاجبه وقائد جنده فيما بعد (مؤنس التركي)، فذهب مؤنس مغاضباً إلى الموصل وقبض الوزير بن القاسم على أمواله، وهزم مؤنس من حاربه من بني حمدان، وتملك الموصل في سنة عشرين وثلاثمائة، والتقى والي طرسوس من بلاد الترك جيش الروم فهزمهم أولاً، ثم هزموه.

وكان إسراف الخليفة المقتدر سبباً في النقمة عليه حين بلغ غلمان القصر أحد عشر ألف غلام خصيان غير الصقالبة والروم، وبدّر الخزائن وأعطى ذلك لحظاياها، إذ أعطى واحدة منهن الدرّة اليتيمة التي كانت في القصر وزنتها ثلاثة مثاقيل، وأخذت قهرمانه سبحة جوهر ما سُوع بمثلها، وأتلف من المال ثمانين ألف ألف دينار في اللهو، وقد لبث على عرش الخلافة الإسلامية زهاء خمسة وعشرين عاماً تحت جناحي أمه، وكان كثير الشراب فقامت الثورات ضده وضد خلافته التي لا تفيق، ولم يخرج مع جيشه لمحاربة الخارجين بسبب خوف أمه عليه من الموت إلى أن حلت سنة عشرين وثلاثمائة للهجرة فعزل الخليفة الوزير الحسين بن القاسم ووّرر أبا الفتح، ولاطف الديلم، وبعث بولاية أذربيجان وأرمينية والعجم إلى مرداويج، وانسحب أمراء إلى مؤنس الثائر، وثار جند الخليفة عليه مطالبين بمصروفاتهم بعد أن بدد ثروة الدولة الوزير «الفضل بن جعفر بن الفرات» ابن أخي الوزير المقتول علي بن الفرات، وساهم مع الوزير الفضل أعوانه من الرجال والنساء الذين عاشوا في أمر الدولة، وظلموا الناس بأخذ حقوقهم، أو حرمانهم من مستحقّاتهم فخاف المقتدر، وتهياً للحرب وخرج لمواجهة الثائرين بعد أن أفنعه أنصاره أن الجند لن يقتلوه، وتقابل جيش الخليفة

مع جيش (مؤنس) الخارج عليه، فتخاذل جند الخليفة، وأقبل مؤنس في جمع كبير يريد القضاء على الخليفة فقال مستشاروا المقتدر: إن جندك لا يقاتلون إلا بالمال، وطلبوا منه مئتي ألف دينار، فتهياً للمضي إلى واسط، فقالوا له: اتق الله، ولا تسلم بغداد بلا حرب، فتجلد وركب وبيده القضيب، وعليه البرد النبوي، والمصاحف منشورة حوله والقراء وخلفه الوزير الفضل بن الفرات، فشق بغداد، وخرج إلى الشماسية والخلق يدعون له، وأقبل مؤنس، والتحم الجيشان، ووقف المقتدر على تل فألح عليه من حوله بالتقدم ليحث الجيش على القتال فاستدرجه بعضهم حتى توسط المعركة وهو في طائفة قليلة، فانكشف جمعه فرماه غلام بربري كان من الأبطال الذين أعجب به الناس مما عمل يومئذ من فنون الفروسية، ثم شدّ الغلام على المقتدر بحرته فأنفذها فيه فسقط فاسرع بذبحه وقطع رأسه بعد أن قرّ أنصاره، ثم أن من حول الغلام من جيش مؤنس رفعوا رأس الخليفة على رمح وسلبوه ثيابه، ولم يبقوا على جسده شيئاً حتى سرواله، وأنصرفوا عنه عارياً في الخلاء فمرّ عليه رجل من الأكرّة فوجده عارياً بدون رأس فستر عورته ببعض الحشائش ثم دفنه لثلاث بقين من شوال سنة عشرين وثلاثمائة.

أما رأس الخليفة فقدّم إلى حاجب الأمس وعدو اليوم (مؤنس الخادم) فندم وبكى، وقال: والله لنُقْتَلَنَ كلنا، وهمّ باقامة الراضي بالله ابن الخليفة المقتدر بالله مكانه في الخلافة، فعارضه مستشاروه، ثم اتفقوا على أخيه محمد الملقب بالقاهر فتولى أمر الدولة، وبعد أيام جهز الخليفة القاهر جيش (نسيم الخادم) في عشرة آلاف فارس، وعشرة آلاف راجل لمحاربة الروم الذين استباحوا عمورية وقتلوا وسلبوا أهلها، فانتصر جيش الخليفة القاهر، وبعد عام حلّ ببغداد وباء وقحط

حتى سَوَدَ الشرفاء وجوههم، وصاحوا: الجوع الجوع، وقطع عنهم القرامطة المؤونة، ولم يحج أحد من بغداد وما جاورها تلك السنة، ساءت أحوال السيدة شغب بعد مقتل ولدها الخليفة المقتدر وتولي أخيه محمد القاهر، وكان القاهر يشك في أن السيدة شغب هي من قتل أمه فعذبها بعد موت الخليفة وصادر أموالها فساءت حالتها ومرضت حزناً بعد أن فقدت ابنها ومالها وسلطتها فنقلها حاجبها (علي بن بليق) إلى داره وجعلها عند والدته، وأكرمها إلا أن علّتها وشدة وطأة التغيرات التي طرأت على حياتها عجّلت بوفاتها.

أما أنت يا مولاي فقد رآك أحبابك ومريدوك بعد فراقك الدنيا في أحسن الأحوال فقال الشبلي: أنه رآك بعد قتلك، فقال لك: ما فعل الله بك؟ فأجبت: أنزلني وأكرمني، قال: في أي محل؟ قلت: قد غفر لكلتا الطائفتين، المشفقين عليّ، والمعادين لي، فأما من أشفق عليّ فلأنه عرفني فأشفق عليّ الله، وأما من عاداني فلأنه لم يعرفني، فعاداني الله أيضاً، فهم معذورون.

ثم أن أختك (أم الفداء) ظلت تبكي عليك أمداً، ثم نامت ذات ليلة فرأتك وأنت تقول لها: يا أختي لم تبكين عليّ؟! فقالت: كيف لا أبكي وقد جرى عليك الذي جرى؟! فأجبتها: يا أختي عندما قطعوا يديّ ورجليّ كان قلبي مشغولاً بالمحبة، فلم أدري ما فعلوا! فلما قتلوني كنت مشاهداً ربي، فلم أدري ما فعلوا بي! فلما أحرقوني نزلت عليّ ملائكة ربي من السماء فحملوا روحي إلى تحت العرش، وإذا بالنداء من العلي الأعلى: يا حسين، رحم الله من عرف قدره، وكنم سره، وحفظ أمره، فقلت: أردت التعجيل إلى رؤيتك، فقال جلّ وعلا: انظر ما بدا لك فإني لا أحتجب عنك.

- يا أختي إذا كنت في رياضٍ وبساتين، وأثمارٍ وأنهارٍ، هل يطلب أحدٌ بدل هذا العمار بذلك الخراب الذي في الدنيا؟  
قالت: لا.

قلت : فذلك أمري.. فكادت تموت من الفرح.

أما صديقك الشبلي فقد صرّح بجنونه بعد المحنة التي حلت بك، وكان يُشاهد على الدوام يحرق الطعام ويمزّق الملابس في أزقة بغداد فيعاتبه أصحابه على هذا فيقول: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ)، فهذه الأطعمة والملابس والشهوات حقيقة الخلق ومعبودهم، أبرأ منها وأحرقها.

لم تمت يا سيدي لكن البيت خرب، والساكن ارتحل في مشهدٍ روحي يلقي بالأضواء على حياتك، وعلى أسرار مصرعك، والناس بين من يقول إنك قد كشفت من الأسرار الروحية ما مكنَّ خصومك من دمك، وفيهم من يعاتبك أيضًا لأنك استسلمت لمصرعك، ولم تحاول النجاة منه وأنت قادر على أن تدفع عنك ذلك.

كنت في سيرتك وكتاباتك وأقوالك تروي قصتك كاملةً، فأنت تتحدث عن سيرك في الطريق المضيء إلى الله، ورحلتك الروحية على أجنحة الحب والوجد فتجاوزت الأكوان إلى المكُون سبحانه.

لقد حاولت في تجربتك الروحية الفذة أن تصل إلى مرتبة الفناء الكامل، الفناء عن نفسك، وعن كونك لتبقى في عالم النور والمشاهدة، ولتظفر بمقام الإنسان الرباني الذي يكون الله جلّ جلاله هو سمعه وبصره ويده ولسانه وحركاته وسكناته، وبذلك ذقت مذاقًا من القرب، أو مذاقًا

من الحب أفنى بشريتك، فحققت بهذا الفناء وثبةً بالإنسان إلى أعلى أفضق تتطلع إليه، أفق القرب، إلى أبعد حدود القرب بين العبد وربّه، كنتَ أجزراً وأقوى من حاول هذه التجربة في عالم التصوف والعبادة من الناس في جهادك الجسدي والروحي وإن لم تستطع أن تتخلص تماماً من جسدك وعلاقته بالأرض فرحلت بروحك إلى الله، وتركتني بقيةً من روحك تتابع أهل الأرض، وتتأمل في تحولاتهم كما رحل موسى عليه السلام إلى الله وترك هارون في قومه ليخلفه فيهم، وغاب جسدك في ماء دجلة بعد أن تحكم أعداؤك فيه حين تركته لهم فأفنوه متباهين بما حققوا، وحين فني جسدك وبقيت بربك بعد زهدك في هذه الحياة التي زهدتُك لأنك لم تكن من عبيدها، و كان العذاب، وكان القتل أبشع ما يكون القتل فقالت الأرض: قُتل الحلاج وانتهى أمرك دون أن يعلم الناس إلا محبوك أنك ما مت، ولكن البيت خرب، والساكن ارتحل، ارتحل إلى البقاء والخلود.

لقد بات التصوف يبكي بدموع حرى على شهيد العشق الإلهي وعبقري الثورات ضد الظلم والاستغلال والاحتكار، وارتمت بغداد باكية وقد هدها التعب، وتضرج قلبها بدمك، وتفتت روحها كمدًا وألمًا على من دخلها أملاً بها وبسموها وهيبتها فأردته قتيلاً، وصرخ الظلم بأعلى صوته محتجاً على عذاب العبقري الذي التفت بغداد حوله بكل طوائفها ومللها تشيد به وتأخذ من فيض علمه، تُقتل وحيداً يا مولاي وينثر تراب جسدك في أثيرها وهي غافية مسترخية في وثير فراشها، والقتلة بأيديهم أمضى سلاح، لكن الذين شربوا من دجلة شربوا ذرات جسدك فظل حبك سارياً في شرايينهم على مر العصور.

بقية روحك - وردة



«شاهد»

أبنا إسماعيل الحيري، أبنا أبو عبد الرحمن السلمى قال: سمعت أبا بكر البجلي يقول: سمعت أحمد بن فاتك البغدادي وكان صاحب الحلاج قال: رأيت في النوم بعد ثلاث من قتل الحلاج كاني واقف بين يدي ربي تعالى فأقول: يا رب ما فعل الحسين بن منصور؟ فقال: كاشفته بمعنى فدعا الخلق إلى نفسه فأنزلت به ما رأيت.



## 15

حمل رجال من نور بقية روحي وذهبوا بها إلى السماء فألفيتني  
 بين مروج خضراء تعبق أزاهيرها عطراً، وتفوح أرجاؤها شذاً فعدت  
 لروحي نشوتها بعد جهد الحياة ورحلة الموت، وكأنني بكامل جسدي  
 معافى قد رجعت إلي رأسي وأطرافي كأن لم يمسنني سوء، ولا أثر لشيء  
 من السياط والتقطيع الذي فعله بي حامد وجنوده، ولولا شعور بنقص  
 ذلك الجزء من روحي الذي خرج إثر رمية صديقي الشبلي لوردته على  
 صدري وبقائه يسبح في الأرض ويتخاطر معي بأحوالها دون أن يستطيع  
 الوصول إلي لكنت في أحسن حال، وربما كان بقاؤه منفصلاً عني  
 جزاء ما ألحقته بوالدي وزوجتي وأبنائي من حزن خلال سنوات سفري  
 للدعوة.

قلّبتُ النظر في جسدي المائل في عيني فلم أرَ إلا نضارة ونعومة  
 ما عهدتها من قبل، وألبسني الرجال المحيطون بي ألبسة من السندس  
 والإستبرق والحريز الناعم، وزينوني بأساور من ذهب وفضة، وقدموا  
 لي كؤوساً من نهر الخمر الجاري في آنية شفافة قد مُلأت بنكهات  
 متعددة، وأنا أتكى على أرائك وثيرة محشوة بالريش الناعم وما حولي  
 يسطع نوراً على مد البصر دون أن أرى شمساً ولا قمراً، ولا سماءً ولا  
 نجومًا، والجو معتدل لا حر ولا قر، وأينما ذهبت وجدت الثمار اليانعة

تتدلى، وكلما خطر ببالي صنف منها وجدته قريباً مني سواء كنت قائماً، أو قاعداً، أو مستلقياً، وحولي طيور ملونة لها شمشقة ووصوصة وتغريد يزيد من جمال المكان، وتأمّلت الرجال الذين يحيطون بي فوجدتهم من نور لا أستطيع الوقوف على صورة أحد منهم، وكلما بدو لي متشابهين اختلفوا عليّ عند التركيز في جمالهم، تأكّدت من نورانيتهم عندما رأيتهم يسيرون ولا وقع لخطاهم كأنهم يسيرون على الريح، ويتحدثون بالتخاطر فلا صوت لحديثهم، وإذا خاطبْتُ أحدهم وقع جوابه في قلبي مباشرة دون صوت، وإذا نويت الحديث أجابني قبل أن أتحدث، قلت في نفسي بعد أن رأيت جمال جسدي وروعة مكاني: لو أن أم الحسين معي في هذا النعيم فإذا هي مقبلة في أحلى صورة وأبهى حلة، عليها غلالة من حرير شفاف يشرح مفاتها فأصابتنى الغيرة عليها من الرجل النوراني الذي يمر بجانبني بين الحين والآخر فإذا معها فتيات حسان ممشوقات القوام يحفّفن بها بلباسهن الجميل في غلالات الحرير الملونه التي تشف عن أجساد كالمرمر، وتزينهن أساور وأقراط من ذهب فحفّفن من غيرتي على أم الحسين التي أَلقت السلام عندما دنت فرحبت بها أجمل ترحيب، وهممتُ بضمها إلى صدري لكنني شعرت بعدم قدرتي على ذلك فتسألْتُ في نفسي فأجابني الرجل النوراني أننا مجرد أرواح بلا أجساد، قلت: فما لي أرى جسدي كاملاً؟! قال: هذا ما سيكون، أنت ترى ذاتك في جسدك الذي لا تسكنه الآن لأنه في الأرض، قلت: جسدي الذي في الدنيا أحرّقه وذروا رماده في النهر وطارت به الريح، قال سيعيده الله كما ترى فيه الآن صورتك فسجدتُ لله شكرًا وحمدته حتى بكيت فرحة لكنني لم أجد لدموعي أثرًا، وأم الحسين تهوّن عليّ الأمر: أنت في أجمل صورة يا حبيبي، حتى وأنت في

النعيم تبكي! سألتها عن أختي وأبنائي ما فعلوا؟ قالت: تركتهم مع أهل الدنيا في شغل وعناء، فسألتها: متى تركت الدنيا؟! قالت: بعد يومين من قتلك غادرت روحي إلى هنا أما جسدي فما زال مدفوناً في الأرض، أدركت حينها أننا روحان نسبح في السماء ولسنا بأجسادنا التي نرانا فيها، ثم حاولت أن أخطوا فوجدتني أصل المكان الذي أريد بمجرد الرغبة دون أن أمشي فسألت أحد الرجال النورانيين عن سر ذلك فقال: أنت في البرزخ حيث لا عمل ولا جهد ولا مشقة، وتأتيك أمنياتك من دون أن تحتاج إلى شيء منها لتقرّ بها نفسك فقط، وليس في هذا المقام جزاء ولا عقاب لأنه دار ممر وعبور إلى حياة أخرى، لقد خرجت من دار الشقاء والعمل والمكابدة إلى دار العبور، وهو أشبه بمقامك في بطن أمك الذي أعقبه خروجك للدنيا لتكابد، وستجني ثمرة ما عملت حين يُنفخ في الصور فيبعث الله الخلق ليروا جزاء أعمالهم، وعندها تتحول الأمور التي تراها إلى حقيقة، ويعود جسمك المنثور في مياه دجلة عندما تعود روحك هذه إليه وستعيش واقع ما تراه من نعيم دون عناء كما عشت حقيقة الحياة بعد ولادتك في شقاء وعمل.

سألت الرجل النوراني الذي يتعهدني كلما ألح علي سؤال: من أنتم؟ قال نحن من الملائكة، خلقنا الله من نور، وسخرنا لعبادته وطاعته، لانعصاه فيما أمر ونفعل ما نؤمر به، لا نوصف مثلكم بالذكورة ولا بالأنوثة فلا نتناكح، ولا نأكل ولا نشرب مثلكم، ولا نمل ولا نتعب، نحب المؤمنين ونؤمّن على دعائهم، ونحفظهم بأمر الله، ونبغض الكفار ونلعنهم، ونعذبهم بأمر الله، ولنا أعمال كثيرة في الكون، ولكل عمل خلقٌ كثيرٌ منا يؤدونه، وأعدادنا كثيرة لا يحصيها إلا ربنا، ولأننا لا نموت مثلكم إلا بعد القيامة فإننا لا نحتاج إلى نكاح وتناسل.

تمنيت أن يحضر صديقي أبو بكر ابن عطاء فإذا هو قادم يحفه النورانيون، عليه جلباب أخضر لم أر أجمل ولا أحسن منه قلت لعل ذلك بسبب ما أصابك من أجلي قال: نعم، سألته عن كتبي ما فعل بها: قال: أحرقتها حامد ورجاله فخطر بيالي حامد لأسأله: هل ندم على فعل كل هذا؟! فلم أره.

قلت للرجل النوراني: حاولت أن أرى حامد بن العباس، وما حل به، قال: لن ترى إلا من روحه معك في السماء، أما الذين ظلت أرواحهم في الأرض فلن تراهم، فأيقنت أن الرجل ما زال حياً.

قلت إذًا: صديقي الشبلي أين هو، وما أحواله، فلم تأت روحه إلا أن وردته التي أخذت جزءًا من روحي قالت: إنه ما زال يطوف شوارع بغداد، ويتصنع الجنون خوفًا مما حل بي، فضحكت كثيرًا، وعلمت أنني سأرى روحه بعد وفاته فهو من الصالحين.

بعد وقت لا أعلم طوله من قصره رأيت روح صديقي مقبلة في أجمل حال، تحفها مجموعة من الملائكة فأيقنت أنه مات، وأنضمت روحه إلى أرواحنا أنا وابن عطاء وأم الحسين فطابت الرفقة، ومضنا نتذكر الدنيا وما فيها من شقاء وما نحن فيه من نعيم، إلا أننا لا نتلذذ به وما زلنا في شوق لقيام الساعة لنعود إلى أجسادنا ندخل الجنة في النعيم المقيم.

قلت أرى الخليفة المكنفي بالله ما فعل فلم تأت روحه، قلت: كيف وقد مات من سنوات؟! قال الرجل النوراني: ربما عليه حساب وعقاب فروحه لم تدخل السماء، قلت: له حسنات كبيرة؟! قال وربما أخطأه كبيرة، قلت نعم، قلت: الخليفة المقتدر بالله، فقد خاطرتني بقية روحي

أنه قُتل على يد جيش خادمه مؤنس، ولعلِّي أتحدث معه حول ما فعل بي وزيره حامد ظلمًا وهو قابع في قصره يصدر الأوامر دون أن يعرف حقيقة الأمور فلم تأت روحه فعلمت أيضًا أنها لم تدخل السماء.

تمنيت روح أبي وأمي وأختي فأقبلوا تحفهم مجموعة من الملائكة فتعانقت أرواحنا كثيرًا، ولم تعد بيننا فرقة إلا ما توجه به زيارة الجسد لبعضهم، وناديت روح الجنيد فلم تأت، كنت أريد معاتبته على مناداته بقتلي، ربما كانت روحه في السماء لكنه لم يجرؤ على مقابلي.

مضيت أتذكر من عرفت من الأصدقاء والأعداء فبعضهم تحضر روحه كنصر القشوري، ومحمد بن خفيف، وأحمد بن كوكب، وإبراهيم الحلواني، وآخرين، وأخرى لا تحضر، وبقيت أرواحنا التي اجتمعت في السماء تنعم بالوصال وتتخاطر مع أهل الأرض بين الحين والآخر فأرى أبنائي سليمان وأحمد وعبد الصمد وبتني فوز وقد أصابهم قتلي بكثير من الحزن فتفرقوا في الأرض، وبقي أحمد يجادل عني تارة وينكر منهجي أخرى أما بقية إخوته فتنكروا خجلًا لما حدث لي ورغبة في العيش بسلام إلى أن انضموا إلينا جميعًا، وما زلت أنتظر انضمام بقية روحي الأرضية إلى السماوية لتكتمل سعادتي.



إشارة (و)

من التمسَ الحق بنور الإيمان كمن طلب الشمس بنور الكواكب.

الحلاج



## 16

كل الموت الذي مرّ عليك يا روعي من أطول احتضار عرفه التاريخ إلى أشنع تعذيب عرفته الإنسانية ظلّ يجادل عنك كأنك ما زلت حيًا، فأنت يا سيدي باهر الشخصية، ساحر الكلمة، رائع السميت، محبب إلى القلوب، فيك استهواءٌ روعيٌّ للجماهير، لكن الآراء اختلفت كثيرًا حول شخصيتك فكفرك من الفقهاء غير من عرفتهم في زمنك آخرون على مر التاريخ منهم: (ابن داود، وابن حزم، وابن خلدون، والجويني، والجبائي، والقزويني وابن تيمية وأتباعه إلى اليوم، بينما عدك وليًا (العالمي، والمقدسي، والسيد المرتضى، ونصير الدين الطوسي، والغزالي، وفخر الدين الرازي، والماتريدي، وابن طفيل) وآخرون يضيق بهم مقام الحصر، أما الذين وقفوا موقفًا وسطًا لا لك ولا عليك فمنهم (ابن بهلول، وجلال الدين السيوطي، والقشيري، والجبلي) وبعض المتأخرين الذين جرى فيهم بعد صعودك إلى السماء ما جرى فيمن عاصروك من اختلاف فقال عنك ابن تيمية:

(مَنْ اعْتَقَدَ مَا يَعْتَقِدُهُ الْحَلَّاجُ مِنَ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قُتِلَ الْحَلَّاجُ عَلَيْهَا فَهُوَ كَافِرٌ مُرْتَدٌّ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا قَتَلُوهُ عَلَى الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ مَقَالَاتِ أَهْلِ الزَّنَدَقَةِ وَالِإِلْحَادِ كَقَوْلِهِ: أَنَا اللَّهُ، وَقَوْلِهِ: إِلَهٌ فِي السَّمَاءِ وَإِلَهٌ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَلَّاجُ كَانَتْ لَهُ مَخَارِقُ

وَأَنْوَاعٍ مِنَ السَّحْرِ وَلَهُ كُتُبٌ مِّنْسُوبَةٌ إِلَيْهِ فِي السَّحْرِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَلَا خِلَافَ بَيْنِ الْأُمَّةِ أَنَّ مَنْ قَالَ بِحُلُولِ اللَّهِ فِي الْبَشَرِ وَاتَّحَادِهِ بِهِ وَأَنَّ الْبَشَرَ يَكُونُ إِلَهًا وَهَذَا مِنَ الْآلِهَةِ: فَهُوَ كَافِرٌ مُّبَاحٌ الدَّمِ، وَعَلَى هَذَا قُتِلَ الْحَلَاجُ).

وكتب عن حياتك كثير من المؤرخين كالخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد)، وابن الجوزي في (المنتظم)، وجمع عن حياتك الذهبي في (سير أعلام النبلاء)، وابن كثير في (البداية والنهاية)، ومهدي كاكه في: كتابه (آمال وهموم) وشخصيات عالمية كثيرة اهتمت بحياتك ومعرفتك ك (لويس ما سينيون) الذي أمضى شطراً وافراً من حياته في ملاحقة أخبارك وما قيل عنك، وبول كرواس، وقاسم محمد عباس، وصلاح عبد الصبور، ورضوان السح، وكامل مصطفى، وهدى بركات، وسامي مكارم، وطه سرور، وآخرين فتنهم سيرتك، كل هؤلاء أكبروا فيك جهادك في طلب العلم ونصرتك المظلومين، وشجاعتك في تقبل المصير المحتوم حين لم تهَب الموت، وظللت متماسكاً وقويّاً، وبدا كأنك تنتظره لا حباً فيه، وله، وإنما ترسيخاً لدعوتك الصوفيّة النادرة، ومبادئ القائمة على التضحية والمحبة.

إنّ أساس المحبة عندك هو التضحية، لذلك وجب على الذي يحب الآخر أن يضحي من أجله، وكنت قد «تنبأت» بموتك صلباً، وقرأت مصيرك المحتوم وفقاً لمعطيات من حولك، وما تراه: (وإن قُتِلْتُ، أو صُلبْتُ، أو قُطِّعت يداي ورجلاي ما رجعتُ عن دعواي).

لم تأت لتدين أحداً، إنّما لتقدّم نفسك تضحية عن الآخرين ومن أجل خلاصهم فعبرت مراراً عن ذلك: (تُهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي).

فعلى الصليب أهديت مهجتك ودمك، وعلى الصليب أيضًا طلبت المغفرة لقاتليك: (يا رب قد اجتمعوا لقتلي تعصبًا لدينك، وتقربًا إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي كما فعلوا ما فعلوا).

وكلامك على الصليب يذكر بما قاله المسيح يسوع على الصليب: (يا رب اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ما يفعلون).

كنت يا مولاي على قناعة ذاتية في أن صلبك وعذابك هما من مشيئة ربك، وقد خاطبته قائلاً: (فاعفُ عن الخلق ولا تعفُ عني، وارحمهم ولا ترحمني، فلا أخاصمك لنفسي، ولا أسألك بحقي، فافعل بي ما تريد).

ودعاؤك هذا يماثل في جوهره ما قاله المسيح لربه: (يا رب، إن أمكن الأمر، فلتبتعد عني هذه الكأس، ولكن لا كما أنا أشاء، بل كما أنت تشاء).

وعندما قلت:

ففي دين الصليب يكون موتي ولا البطحا أريد ولا المدينة دليل على موتك على دين الإسلام، وقالوا لك وأنت مصلوب: قل لا إله إلا الله. فقلت: إن بيتاً أنت ساكنه غير محتاج إلى السراج.

هكذا أحببت ربك حباً صرفاً منزهاً عن أية غاية، لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من الجحيم، ومثلك مثل رابعة العدوية حين قالت: (ربّي، إذا كنت أعبدك خوفاً من النار فأحرقني بالجحيم، وإذا كنت أعبدك طمعاً في الجنة فأحرمنيها، أمّا إذا كنتُ أعبدك من أجلك فحسب، فلا تحرمني يا إلهي وجهك الكريم).

ولا عجب أن يتبنّى التقليد المسيحي هذا الدعاء ليستعمله في فعل  
الندامة بصيغته المختصرة حيث يقوله التائب بعد استقباله الحلة من  
الكاهن المعرّف.

عشتَ يا أبا سليمان حياةً كلّها عذاب وقهر، ولكنك عشتها بملء  
إرادتك ورضاك، وتوّجتها بالموت صلباً وتقطيعاً وحرقاً، فقال عنك  
جلال الدين الرومي: (قد بلغ الحلاج قمة الكمال والبطولة كالنسر في  
طرفة عين).

لقد اكتشف محبوبك من المسيحيين ملامح المسيح يسوع، ليس  
فقط في موتك على الصليب، بل في أقوالك في التضحية والفداء  
والمحبة التي لو لم نعرف صاحبها لكنا قلنا: إنّها تعود حتماً إلى أحد  
القديسين حين قلت في سجنك ليلة إعدامك ونقلها بعض الذين كانوا  
معك في السجن إلى الناس:

(نحن شواهدك نلوذ بسنى عزّتك لتبدي ما شئتَ من شأنك  
ومشيئتك، وأنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله، تتجلّى لما تشاء  
مثل تجليّك في مشيئتك كأحسن الصورة، والصورة فيها الروح الناطقة  
بالعلم والبيان والقدرة، ثمّ أوعزت إلى شاهدك الآني في ذاتك الهوى  
اليسير، كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند عقيب كراتي، ودعوت إلى ذاتي  
بذاتي، وأبديت حقائق علمي ومعجزاتي، صاعداً في معارجي إلى  
عروش أزليّاتي، عند القول من برّياتي، إني احتضرتُ، وفُتلتُ، وُصّلتُ،  
واحتملتُ سافياتي الذاريات ولجّت بي الجاريات).

لقد سافرت في داخلك يا سيدي أكثر من سفرك في أرض الله التي  
جبتها شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً حتى أصبح في وسعك اجتياز العالم

إلى ما وراءه، وكانت رحلاتك تنضح بالحب لخالقك، وتبني معالم السمو في داخلك فجاوزت كل المتصوفة والعباد الذين سلكوا الطرق من أجل الشهرة والمال وتعاقب المريدين، وركنوا إلى معابدهم بدعوى مجاهدة النفس مستدلين بحديث الرسول ﷺ (عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)، وتركوا الناس لشأنهم يرزحون تحت ظلم الحكام الطغاة، والنافذين المستعبدين، والأغنياء الفجرة الذين لا يخافون الله، ولا يراعون أحدًا في سبيل تحقيق شهواتهم.

لقد تجاوزت أطوار الحقيقة طورًا طورًا حتى بلغت مرتبة الكمال البشري والنفس الرضية بعد أن انتقلت من طور النفس الأمانة بالسوء التي يعيشها أغلب الناس الذين يقعون في شرك الدنيا وإلقاء اللوم على الآخرين إلى النفس اللوامة التي تعني النقاء الداخلي وأنت شاب يافع تتلقى العلم على أيدي كبار علماء زمانك، وازددت نضجًا حين سلكت طريق المجاهدة والتأمل وبدأت تبحث عن الحكمة والإلهام حتى بلغت منزلة النفس المطمئنة بعد مجاهدتك في البيت الحرام لعام كامل تحت الشمس والمطر، وبلغت منزلة الوحدة بعد جهادك على الثغور، وذودك عن حياض الدين فلم تعد تشغلك الدنيا حتى وهي تقبل إليك في قصر الخليفة بقضها وقضيضها لتصدع بالحق، وتطالب بالعدل بين الرعية، ثم بلغت منزلة النفس الراضية بعد مقارعتك كيد الأعداء من الوصوليين والحاسدين، ولم يعد لمظهرك الخارجي أي أهمية فراك الناس درويشًا في ثياب رثة، وزنديقًا تتردد على أماكن اللهو، ومدرعًا ثياب الجند في هيئة قائد على الثغور، وحكيماً وعالمًا في مسجد المنصور ببغداد إلى أن بلغت منزلة النفس الرضية كآخر ما يبلغه الإنسان من كمال حين غدوت مشكاة الإنسانية خلال سنوات سجنك إلى أن صلبوك وقتلوك وذروا

رمادك في دجلة، وانتشر منهجك مشفوعاً بمقولتك: (إن الله شغل بكلِّ دينٍ طائفةً لا اختياراً منهم بل اختياراً عليهم، فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم بأنه اختار ذلك لنفسه)، وكان أكثر أتباعك في بلاد البنغال بقيادة «سرمد الكاشاني» وأصبح أتباعك من ماليزيا شرقاً إلى الأندلس غرباً، وزاد عدد محبيك في كل الأرض منذ رحلت إلى ما بعد ألف سنة من تضحيتك، وما زلتُ أطوف بجوار مرقدك الذي لا يحوي شيئاً من جسدك غير الرأس، هذا الضريح الذي بُنيت فوقه قبة كبيرة في حي المنصورية، وتم توسيع مساحات الغرف لتسمح باستقبال الزائرين الذين يأتون للسلام عليك حيث اتجهت له قلوب الملايين عبر القرون، وتحت قبته أنشد جلال الدين الرومي روائعه، ورتل فريد الدين العطار أقوى ملاحمه، وترنم الجامي بنفحات أنسه، وفي ردهاته عقد صوفية الفرس والترك حلقاتهم التاريخية، وأنشد العابدون على ناي منصور البغدادي أروع ألحان الروحانية، ويقف إلى جانبي القيم على مرقدك الشيخ يحيى الذي أخذ خدمة ضريحك عن أهله منذ قرون، وهو رجل بصير يبلغ من العمر نحو السبعين عاماً يستقبل الزوار كل يوم برغم ما عصف ويعصف ببغداد من حرب ودمار.

بقية روحك - وردة